

دراسات في الأدب في (عصر صدر الإسلام)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

وعضو اتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١٠.٩٢ الخطيب، علي .

ع. خ

دراسات في الأدب في عصر صدر الإسلام / علي الخطيب - ط١ -

دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٦٠ ص ١٧.٥ × ٢٤.٥ سم .

تدمك : 2-361-308-977-978

١. الأدب العربي - تاريخ ونقد.

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والنشر محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2012

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	تصدير.....
٩	ظهور الإسلام.....
١٢	الناحية السياسية.....
١٣	تأسيس الإمارات العربية.....
١٥	الناحية الدينية.....
١٦	اليهودية والنصرانية.....
١٨	ظهور الحنفاء.....
٢٠	إرهاصات تسبق النبوة.....
٢١	ظهور الإسلام.....
٢١	الناحية الأدبية.....
٢٦	الناحية الاجتماعية.....
٢٦	تحليل النفس العربية.....
٢٩	أثر الإسلام.....
٣١	الأدب الإسلامي.....
٣٣	القرآن الكريم.....
٣٤	معنى القرآن.....
٣٥	زوله.....

الموضوع	الصفحة
جمعه وروايته	٣٧
جمع القرآن زمن عثمان	٣٨
أسلوبه	٣٩
القرآن المدني	٤٠
القرآن الكريم ليس بشعر ولا نثر	٤١
الموسيقى القرآنية وخواصها	٤٢
الموسيقى القرآنية	٤٣
فنون القرآن	٤٤
أغراضه وغاياته وفنونه	٤٤
وضوح أفكار القرآن الكريم	٤٧
تأثر العرب بالثقافة القرآنية	٤٩
بلاغته وإعجازه	٥٠
فنون القرآن البيانية	٥١
إعجاز القرآن	٥٥
أثر القرآن في اللغة والأدب	٥٧
الحديث النبوي	٦٠
أثر الحديث في اللغة والأدب	٦٤
الشعر في عصر البعثة الإسلامية	٦٧
تأثير الإسلام في الشعر	٨٥

الصفحة	الموضوع
٩٠	تطور النثر في عصر البعثة
٩٣	النثر الفني
٩٤	الخطابة
١٠٤	الكتابة
١١٥	النثر العلمي
١٤٢	الدعاء
١٥٧	أهم المصادر والمراجع

تصدير

إن الحياة الإنسانية ذات نواح شتى، يمتاز كل منها عن الباقي من جهة ثم تتصل بها مؤثرة ومثأثرة من جهة أخرى، فناحية سياسية، وأخرى إجتماعية وثالثة دينية، ورابعة فنية أدبية إلى غير ذلك من ألوان الحياة ومناحيها وهذه الأحوال المتشابكة والمعقدة التي تلبسها الحياة خلال القرون المتعاقبة إنما تتطور وتستحيل في بقاء وأناة بعوامل كثيرة متباينة جلها معنوية، أو خفية لا يمكن أن يحس، أو يشاهد، وإن كان يدرك، وتبدو آثاره في الحياة الحسية في الأوقات المناسبة فليس من الميسور مطلقاً نقل أمة من حياة البداوة إلى حياة الحضرة طرفة، كما أنه ليس من السهل اليسر تلف نظام الحكم في بضعة أيام، كما أنه من المستحيل تغيير عقل الشعبي، أو فنونه، أو آدابه بتلك السرعة التي قد يتصورها الناس إلا أن يكون ذلك محاولة محكوم عليها بالفشل الذريع ومصيرها الانعكاس والضّرر، بل المأساة الضارة والسّر في ذلك هو أن هذه التغييرات تتناول الحياة النفسية للإنسان قبل كل شيء، والتعبير المعنوي في العقائد والأفكار، وطرائق التفكير، والتصوير والتعبير يستلزم زمناً طويلاً يسمح للعوامل المتباينة من "دين جديد أو رأي مبتكر، أو أسلوب فني حديث، أو أدب طارئ أو تقاليد، ونظم مفروضة أن تحدث آثارها، وللنفوس أن تنهض للجديد، ثم تتقبله، حتى إذا توفرت جميع العوامل وحانت الفرصة المناسبة شاهدت حوادث وانقلابات يسميها الناس "ثورة" أو "نهضة" أو "تحولاً في حياة الأفراد، والجماعات، فهذا هو ذا العصر الإسلامي الذي نجده خير ما يوضح لنا كيف تنتقل الشعوب من طور

تاريخي إلى طور سواء ، فالحياة العربية كانت في أواخر القرن السادس "المسيحي" ، وأول القرن السابع أخذت في التطور أدبياً وسياسياً ، ودينيّاً واجتماعياً ، وقد أحس المتقدمون بهذا التحول ورأوا فيه إرهاباً ، أو مقدمة لحياة جديدة ، أو حدث عظيم يظهر في هذه الأمة العربية ، ولم يخطئوا في هذا التقدير حيث إن هذه الظواهر كانت دليلاً على أن حدثاً خطيراً سيُلمّ بهذه الأمة البدوية فيغير حياتها ، بل سيحدث فيها ثورة ، وانقلاباً هائلاً في كل مناحي الحياة ، بل ويدفعها إلى تمثيل دورها الطبيعي على مسرح الحياة العامة .

نينكم هو " الإسلام " وهو الحدث الخطير الذي أومأنا إليه آنفاً ، وإن فترة الإرهاب طور طُبِعَ في حياة العرب ، وهي كذلك الخطوة الأولى الممهدة لبناء عهد جديد ، فهي الملائح الأولى للعهد الإسلامي والمدخل إلى هذه الحقبة التي نواجهها ، إلا أن فترة الإرهاب هذه ذات مظاهر شتى ، فهي عقلية وسياسية واجتماعية ، وأدبية ، ونحن مضطرون أن نتتبع كل ناحية من هذه المناحي ، ونسير بها حتى ظهور الإسلام ، وبعد ظهوره لتعرف مداها وما أفادت من هذا الدين الجديد .

المؤلف
الأستاذ الدكتور
على الخطيب

ظهور الإسلام

في عام '٥٢٥م' '٩٧' ق. هـ. يعني قبل الهجرة النبوية المباركة احتل الأحباش "اليمن" وبعد خمسين عاماً سار أبرهة الأشرم "والي" "اليمن" من قبل ملك الحبشة بجيش عرمرم على "مكة المكرمة" وحاصرها عام ٥٧٠م ولكن حملته هذه باءت بالفشل، وأبى جبر أذبال الخزى والعار، والخبيبة والشنار، ولم يكن أهل مكة رأوا من قبل "الفيلة" فى الجيوش، بل كانوا يرون "الخيل" يمتطى صهواتها "الفرسان" فسموا العام بعام الفيل. وفى ذلك العام ولد سيدنا "محمد" ﷺ فى مكة ونشأ فيها يتيماً، فقد توفى أبوه قبل أن يولد، ثم توفيت أمه وهو فى السادسة من عمره حين كانت تزيّره أخواله من بنى النجار وكانت وفاتها فى مكان يسمى "الأبواء" وفى الخامسة والعشرين من عمره تزوج سيدنا "محمد" ﷺ بالسيدة الفضلى "خديجة بنت خويلد" وكانت من أهل الغنى والبسار، ومن التجار المشهورين بمكة وغيرها من البلدان المجاورة، ولما بلغ الأربعين من عمره اختاره الله لأداء رسالته، ثم بعثه رسولاً إلى الناس أجمعين ويأتى الأمر بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يصعد بالدعوة. فيقول الله تعالى:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٤]

ودعا الناس فى مكة إلى توحيد الله ثلاث عشرة سنة، ومع ذلك لم يزد المعتنقون للإسلام فيها أكثر من "سبعين مسلماً" عاشوا جميعاً فى اضطهاد وتنكيل، وتعذيب، وذل، وهوان من الكافرين مثل بلال بن أبى رباح الحبشى وصهيب الرومى "وعمار بن ياسر، وأبوه، وأمه التى رماها أبو جهل بحرية أصابت فرجها، وأردتها قتيلة، ثم كانت الهجرة إلى الحبشة، ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها والنبي ﷺ وكان ذلك عام "٦٢٢م" فتلقاه أهل المدينة بالحب، والترحاب، وخرج النسوة يزغردن، ويضربن بالدفوف وينشدن.

طلّع البدر علينا من ثيابات الوداع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

ثم دخل أهل المدينة في الإسلام ، وبدلاً من تسميتها " بئرب " سموها " مدينة الرسول " وتعد الهجرة مبدأ التاريخ الإسلامي والذي يسمى بالتاريخ الهجري . وبعد ذلك أصبح الإسلام دولة ، وصار المسلمون أمةً وقد حاول المشركون بالاتفاق مع اليهود في المدينة محاربة الإسلام والمسلمين ، ولكن المسلمين انتصروا على عدوهم في معارك كثيرة كان من أشهرها " غزوة بدر الكبرى " والتي وقعت في السنة الثانية للهجرة ، والتي توافقت سنة " ٦٢٤ " للميلاد و" غزوة " الخندق " وكانت سنة " خمس " للهجرة " ، و" غزاة " حنين " وكانت سنة " ثمان " للهجرة " وقد فتح الله " مكة " على نبيه عليه الصلاة والسلام وعلى المسلمين ، وانتشر الإسلام وعمّ الجزيرة العربية كلها وفي سنة " ١١ هـ " لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بعد جهاد ودعوة إلى الله وتوحيده دام ثلاثاً وعشرين سنة قضى ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة هذه مدة بعثته ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ رسولاً وقائداً ، وحاكماً ، فلما توفى عليه الصلاة والسلام لم يكن للمسلمين خيار سوى اختيار خليفة لهم يدير أمورهم ويرعى مصالحهم فبايعوا أبا بكر ﷺ خليفة عليهم ، مضى أبو بكر ﷺ " سنين " في الخلافة قاد خلالها " حروب الردة " وبعث الجيوش للفتح ، ولإنقاذ العرب الذين كانوا يعيشون في " العراق " ، و" الشام " يرزحون تحت نير " الفرس والروم " وبعد " أبي بكر " ﷺ جاء الخليفة " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه ومكث في الخلافة " عشر سنين " فتح العرب فيها " العراق " ، و" الشام " ، ومصر ، وفارس " وفي عهد " عمر " ﷺ اتحدت الدولة الإسلامية شكلها الواضح ، وصارت دولة مرهوبة الجوانب ، وامتدت الفتوحات في عهده واتسعت رقعة الدولة الإسلامية حتى كانت حدودها من الصين شرقاً إلى أن أطل " الإسلام برأسه من فوق جبال " البرانس " في فرنسه غرباً .

وبعد سيدنا "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ، تولى الخلافة سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه وهو أمويّ ، فانتسعت الفتوحات في زمنه في "مصر وليبيا وفي البحار" ثم تولى الخلافة سيدنا "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه فاستمر الاضطراب ، وتوقفت الفتوحات بعد نشوب الخلاف السياسي بين سيدنا "علي بن أبي طالب" ، وبين سيدنا "معاوية بن أبي سفيان" وانقسم أنصار سيدنا "علي بن أبي طالب" على أنفسهم فأصبحوا "شيعة" وهم الذين ناصرُوا الإمام "علي" رضي الله عنه ووقفوا موقف الجُذاء من خصومه ، و"الخوارج" الذين كانوا يعدّون النزاع بين "علي" ، ومعاوية نزاعاً سياسياً ، ثم عاؤوا "علياً ومعاوية" معاً وحاول الخوارج قتل "علي" ، ومعاوية وعمرو بن العاص "لأنهم جميعاً في رأي الخوارج كانوا سبباً للخلاف بين المسلمين فلم تسنح الفرصة إلا بقتل "علي" سنة ٤٠ للهجرة - ٦٦١ للميلاد .

الناحية السياسية

إن الدارس لتاريخ الأمة العربية قبيل الإسلام أى في القرن السادس المسيحي يشاهد أطواراً عظيمة في نواح كثيرة من حياتها ، فالناحية السياسية كانت مركزة لديهم في نظام " القبيلة " التي يخضع أفرادها لرعي واحد يصل إلى هذا المنصب عن طريق عشيرته الخاصة به . وذلك لكثرتهم في العدد أولشهرتهم ببعض الفضائل الكريمة ، ونحو ذلك من الميزات التي تؤدي إلى اتفاق الجماعة على اختياره للرئاسة ، والسيادة ، والرعاية ، ويمضي الأيام اكتسب الزعماء حقوقاً على الجماعات تشبه من بعض الوجوه ما يكون للملوك والحكام في الأمم والشعوب المتقدمة ، فمن ذلك أنهم كانوا يجعلون للسيد رُبع الغنيمة في الحرب ، ويخصونه بالصفايا - والصفايا هي ما لا يمكن اقتسامه من فرس كريم ، أو سيف قاطع ، أو حليّة نفيسة ، وله كذلك حكمه في اختيار ما تقع عليه رغبته من الغنائم ، والنشيطه وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم ، والفضول ، وهو ما قلّ منها حين تقسم في الطريق بقول شاعرهم .

لك المرباع منها والصفايا وحكمك النشيطة والفضول

وقد أُلّف الرئيسى هذه الحياة وأحبها لتمكنه فيها من حريته الشخصية ولم يظهر على أهل البادية في وقت من الأوقات ميلهم إلى الحضر ، واستبداهم بها سكنى الأمصار ، فاعتزوا بها ، وأثروها على ما كان بها من شطف العيش ، وقساوة الحياة ، ولقد سئل بعضهم " ما كنتم تصفون بالبادية إذا انتقل كل شيء ظله ؟ فقال : " بَخْ بَخْ وهل العيش إلا ناك يمشى أحداً ميلاً فَيَرْقُضُ جبينه عرقاً كأنه الجان فيركز غصاه ، وينصب عليها كساءه ، ثم يجلس تحته ، وتقبل عليه الرياح من هذا ، ومن هذا ، فكأنه في إيوان كسرى " .

تأسيس الإمارات العربية

أومأنا آنفاً إلى فقدان الوحدة السياسية ، فقد كان يوجد بعض الأنظمة السياسية بين سكان الحجاز في مكة ، وفي الإمارات العربية التي تأسست إحداها في العراق ، وكانت مواليه لبلاد الفرس ، والأخرى في بلاد الشام ، وكانت تابعة لبلاد الروم ، وكانت الثالثة في الوسط وهي إمارة " كندة " في بني أسد وأحلافها وكان ولاء الكنديين للملك " غسان " لما كان حادثاً بينهم وبين ملوك " المناذرة " من الخصومة والعداوة ويمكن للباحثين أن يجدوا ظلاً للنفوذ السياسي في هذه الإمارات الثلاث ، فقد كانت لهم إقطاعات وحرس دائم ومساليح للجند تشبه من كل الوجوه ما يقوم في الممالك الناشئة في العصور المتقدمة .

وقد زهت قريش في أوائل القرن السابع بعد اندحار الحبشة ، ورجوع " أبرهة الأشرم " بجيشه عن غزو " الكعبة " وازداد من ذلك الوقت نفوذها في الجزيرة العربية وقامت بتحقيق كثير من المبادئ العالية التي قلما توجد إلا في الأمم التي تكون قد بلغت من الرقي العقلي ، والمدنية الإنسانية شأواً بعيداً من ذلك " حلف الفضول " الذي تعاقد فيه أشراف " قريش " على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً ، ولا حلالاً ، ولا متنصفاً إلا أعانوه برفدهم ، وفضول أموالهم ، وقال رسول الله ﷺ " شهدت في دار ابن جدهان حلفاً لو دُعيت إليه لأجبت " ومن ذلك أيضاً " دار الندوة " التي أقيمت تجاه " الكعبة " ، وهي " دار قصي بن كلاب " وكانت قريش تشرألها بأمر " قصي " تجتمع فيها للمشورة في الجاهلية ، ولإبرام الأمور وبذلك سميت " دار الندوة " وذلك لاجتماع الندى فيها واجتماع القرشيين

فيها لاغتيال النبي ﷺ ليلة هجرته ، وهو أمر معروف ومشهور سجلته كتب السير والتواريخ .

ومن ذلك أيضاً " الحكومة ، والرفادة ، والسقاية والحجابة ، والسدانة والإفاضة " وكلها مناقب استأثرت بها جماهير " قريش " وامتد لها بذلك نفوذ على العرب جميعاً تظاهرت على الريادة أسباب قوية منها :

" جوارهم للبيت ، واشتغالهم بالتجارة " وما كان لهم من التجارة والبسطة " واكتسابهم لكثير من محاسن القبائل الوافدة عليهم في موسم الحج ، وفي الأسواق التي كانت مطبقة بمكة وكانهم في الحملة يتهيأون بهذه العوامل ويغيرها من وحدة اللسان ، والاشتراك في البيئة ، والجنس ، وانتشار النفوذ من حياة الهمجية والفوضى إلى استقبال العصر الجديد من الإسلام الذي جمع منهم الشمل ، ولمّ شعثهم ، وصيرهم أمة واحدة يدعوون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولم يلبثوا أن ملأوا الحياة رخاءً ، وغدلاً ، وأشرق أفاق الأرض بعوالمهم وطلائعهم الذين سرعان ما خفقت ألوية غزاتهم على أكثر المعمور من أقطار الأرض هنالك صارت العرب شعباً واحداً ، وأمة سياسية خالدة ، أخذت مكانها بين كبريات الأمم في التاريخ .

الناحية الدينية

ليس في وسع الباحثين أن يجدوا دليلاً قاطعاً على مبدأ التدين لدى العرب ولا أن يعرفوا عن نشأة الديانات التي شاعت بينهم ، ولا عن أصولها شيئاً يطمئن الباحث الحديث إلى سلامته من الريب ، والحدس ، والظن ، والتخمين وبما لا ريب فيه أن عبادة " الكواكب " كانت من أقدم العقائد العربية ، واشتهر عرب الجنوب من اليمنيين بعبادة " الشمس " كما ورد في قوله سبحانه في الحديث عن ملكة سبأ " بلقيس " ﴿ وَجَدْنَاهَا وَفَرَمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة النمل: ٢٤) وكانت عبادة القمر معروفة عند " عرب الشمال " من البدو الذين كانوا يعتمدون على الرحلة بالليل ويهتدون بضوء القمر في تلك المفاوز الموحشة وقد بقي في الآداب والمعتقدات العربية ما يدل على مكانة " القمر " من بين معبوداتهم في الجاهلية مثل تقليبه على " الشمس " وفي تنبئة القمرين ، والاعتماد عليه في الصيام والعدة ، والحج وعدد السنين والحساب .

وقد عبدوا "عطارد" و"المشتري" يقول تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (سورة

النجم: الآية ١) .

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَزْكَى مَا الطَّارِقِ (٢) النَّجْمِ الثَّاقِبِ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) (سورة الطارق: الآيات ١: ٤) .

يقول **المفسرون** ، " إن المراد بالنجم هو " عطارد " ويذكر لنا " أبو المنذر بن السائب الكلبي " وهو من مؤرخي العرب في القرن الثاني الهجري في " كتاب الأصنام " إن أول عهد العرب بعبادة الأصنام كان بعد إقامة " خزاعة " بمكة وسيادتها على الحرم وأن " عمرو بن لحي " سيد " خزاعة " كان قد ارتحل إلى " البلقاء " من بلاد الشام ، ووجد أهلها يسجدون لهذه الأصنام ، فسألهم عنها " هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية لننتصر بها فدفعوا إليه " هبل " وهو

أعظم أصنامهم ومن أشهر آلهتهم " اللات والعزى ومناة" وعداً أصنام وآلهة كثيرة تسموا بأسمائها ، وأضافوا أنفسهم إليها مثل " تيم اللات، وعبد يغوث ، وامرئ القيس ، وعبد شمس ، وعبد مناة " وقد نفى القرآن الكريم عليهم هذه العبادات في كثرة كثرة من الآيات القرآنية منها قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١١) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (١٢) ﴾ [سورة النجم: الآيات ١٩ : ٢٠] وقوله سبحانه : ﴿ ... لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ... ﴾ [سورة فصلت: من الآية ٣٧] وبعض الطوائف من العرب كانوا يعبدون " الملائكة والجن " يقول عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٥٠) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ [سورة سبأ: الآيات ٤٠ : ٤١].

ظهور الزندقة :

وقد روى لأن قوماً من قريش كانوا يعتنقون الزندقة وقد قبضوها من " الحيرة " وهذه الزندقة تقول بآلهتين هما " إله النور " وهو أصل كل خير و" إله الظلمة " وهو أصل كل شر^(١) . وهناك قوم من العرب أنكروا الأديان كلها ، وأنكروا الخالق ، والبعث والإعانة ، وقالوا بالطبع المجى ، والدهر المعنى وهى مقولة الملاحدة والدهريون الذين يؤمنون بأن الدهر هو مهلكهم " ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع"^(٢) ويقول القرآن على ألسنتهم : ﴿ هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ مِنْ إِلَٰهِنَا الَّذِي تُمُوتُ وَيَحْيَا وَمَا تَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧] وقوله سبحانه ، ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبَدِّلُهَا إِلَّا الدَّهْرُ ... ﴾

[سورة الجاثية: من الآية ٢٤].

اليهودية والنصرانية :

وقد انتشرت اليهودية ، والنصرانية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وليس فى المصادر التاريخية ولا الأدبية ما يفاد منه تحديد الوقت الذى ظهرت فيه

١ - راجع المعارف لابن قتيبة الدينورى .

٢ - بلوغ الأدب للألويس .

هذه الديانات في بلاد العرب . بيد أن النصرانية التي كانت منتشرة في بلاد "اليمن" وفي قبائل " تغلب ، وقضاعة ، وغسان " ويقول علماء الأدب العربي " ويظن أنها دخلت إلى بلاد العرب في القرن الرابع الميلادي ، وذلك بنقل القساوسة ، والبطارقة ، وإن كان العرب لم يعتنقوا المسيحية ، ولم يدينوا بها ، وقد تسرب إلى الجزيرة العربية في ذلك الوقت فرقان كبيرتان من النصارى : وهما "النساطرة" وكانوا في الحيرة و" اليعاقبة " في " غسان " ، " الشام " وقد اختلف المؤرخون في أصل اليهود فبعض المؤرخين يقولون إنهم "عرب" اعتنقوا اليهودية وبعضهم يقول " إنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب " ويقول بعض المستشرقين : "إن اليهودية انتشرت قبل الإسلام بقرون كثيرة ، وأسست هذه مستعمرات يهودية ومن أشهرها " يثرب " وهي المدينة المنورة صلى الله على ساكنها سيدنا " محمد " وتسميتها جاءت بعد الاسم الذي كانت تسمى به من قبل ربيعو " يثرب " وكان يهود يثرب ثلاث قبائل وهي " بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع " كما أن أهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان " نجران " وهي الآن من أعمال المملكة العربية السعودية ، بيد أنها في الحقيقة " بنية الأصل " وكذلك " جيزان " فهما مدينتان يمينيتان ونجران مدينة تمتاز بالخصوبة ، وهي قريبة من الطريق التجاري الذي يمتد إلى " الحيرة " ومباهلة النبي ﷺ لوفد " نجران " شهيرة .

يقول ياقوت الحموي : " في معجم البلدان " " ووفد على النبي ﷺ وفد " نجران " وفيهم السيد واسمه " وهب " والعاقب " واسمه " عبد المسيح " والأسقف " وهو " أبو حارثة " وأراد النبي عليه الصلاة والسلام مباہلتهم فامتنعوا ، وصالحوا النبي ﷺ فكتب لهم كتاباً ، فلما ولي " أبو بكر " ﷺ أنفذ ذلك لهم فلما ولي سيدنا " عمر بن الخطاب " ﷺ أخلاهم ، واشترى منهم أموالهم .

فكرة التوحيد

ويرى الأستاذ "أحمد أمين" تابعاً في ذلك الأمر المستشرقين أن ظهور "التوحيد" في الجزيرة العربية لا يُبدو أن يكون أثراً من آثار المسيحية ، أو اليهودية ويضيف إلى ذلك أن الأوطان السامية القديمة كانت المهد الأول للديانات الثلاث الكبرى التي ظهرت في التاريخ وهي النصرانية ، واليهودية ، والإسلام .

ولا ندرى أ هم في جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، أم أنهم يتجاهلون أن الله سبحانه وتعالى قد بعث إلى العرب أربعة من الرسل قبل ظهور هذه الديانات وهم " سيدنا " هود " عليه السلام وكان في قوم عاد الذين كانوا يقيمون في الأحقاف وثانيهم سيدنا " صالح " عليه السلام ، وكان في " ثمود " وكانت منازلهم بالحجر وكذلك سيدنا " شعيب " عليه السلام وكان في أهل " مدين " وإسماعيل " في العرب المستعربة .

وقد حكى " القرآن الكريم " شيئاً عن مدينتهم وتاريخهم . وليس من المعقول أن تكون الجزيرة قد تجردت من آثار وراثية لرسالات هذه الرسل التي كانت قائمة على أساس الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، وأنه ليس للخلق ولا للأرض والسماء إله غيره سبحانه وتعالى جلّ في علاه .

ظهور الحنفاء :

إنه من المؤكد أن هناك طبقة من الشعراء والكهان والأشراف قبل ظهور الإسلام قد فطنت وهديت بفطرتها إلى أن لهذا الكون إلهاً خلقه ، كما فطنت إلى أن الجمهرة العربية في غواية منكرة ، فدعت إلى ضرورة الخروج بالعقلية العربية عن هذا الدرك من الانحطاط ، وذلك بنيل عبادة الأصنام ، والتخلص من عادات الجاهلية مثل " وأد البنات ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر " وكان هؤلاء الحنفاء أو المتحنفين يدينون بالبعث ، ويؤمنون بالله وحده ، ويدعون إلى الحنيفية دين أبيهم " إبراهيم " عليه السلام وكان هؤلاء يسمون " التائبين أو الحنفاء " ومنهم على سبيل المثال لا الحصر " ورقة بن نوفل " و " قس بن ساعدة الإيادي " و " أمية "

بن أبي الصلت " وقد سمع رسول الله ﷺ " قس بن ساعده الإيادي في سوق " عكاظ " يخطب على جمل " أورق " يبشرهم برسول الله ﷺ ودين جديد قد أظلمهم أوانه ، وأدركهم إبانته وقال فيه رسول الله ﷺ : " يرحم الله قُصّاً إنني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده " .

كما نرى جماعة من الوثنيين قد سئموا وثنياتهم ، وأحسوا قصورها من حاجتهم الروحية ، فمالوا إلى الشك ، والإباحة ورأوا في الحياة مهزلة غير مفهومة من الواجب أن تقضى فلهو ، ونعيم ، واستهتار ، نجد ذلك في شعر الشاعر " طرفة بن العبد البكري " - .

ألا بهذا الزاجرى لأحضر الوغى

وإن لشهد الذات هل أنت مخلدى

فلئن كنت لا تستطيع دفع منيتى

فدعنى لأبائرهما بما ملكت يدي

يقول :

متى تلتنى أصبحك كأساً روية

وإن كنت عنها داعنى فعن وازدد

كريم يروى نفسه فى حياته

ستعلم إن متنا غداً أينما الصدى

فهذا شاعر قد استيأس من الحياة ، وشك فى الآخرة ووجد الخير

فى أطراح الجبن ، والتعلق باللُّهو ، وما يتصل به وإذا تركنا الشاعر " طرفة بن العبد

البكري " الذى يئس تمام اليأس نجد وثنيّاً آخر هو الشاعر " زهير بن أبى سلمى

المزنى " يحس بقصور الديانات التى يراها أمامه فى الجزيرة العربية ، بيد أنه

لا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو ، أو أن العالم خلق سدى ، وشرع يفكر فى نهاية

هذه الحياة ، متشبهاً بفكرة الآخرة **فتراه يقول .**

فلا نكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعظم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

فهو إنَّما مطمئن إلى شيء بعد الدنيا من "حساب وجزاء" ولكن هذه الفكرة لا تقوم عنده على بُرْهان عَقْلِيٍّ، أو بحث قَوِيٍّ، أو رأى ديني. لذلك نجده بعد ذلك يعود إلى اضطرابه، فيورد لأفكاره القديمة.

فيقول،

رَأَيْتُ الْمَنَافَا خِيَطَ عَشْوَاءَ مِنْ تُصَبِّأَ تَمَتَّهَ وَمِنْ تَخْطِئَ يَعْمَرُ فَيَهْرَمُ
فالموت لديه مصادفة، ومعنى هذا اضطراب العرب أو مفكرهم أمام هذه الديانات التي تعرض نفسها عليهم، ثم حيرتهم في اختبار أحدها، وفي أيهما أشد ملاءمة لهذه الحال التي وصلوا إليها من أطوار حياتهم البدوية، فهم في حاجة إلى الهداية، والإرشاد أو إلى مثل ديني أعلى لإشباع هذه الشهوة الروحية النائرة وفي هذا الوقت تنتظم القبائل العربية أسباب متظاهرة لنهضة اجتماعية، وعقلية ظهرت طلائعها بالميل الشديد للوحدة العامة، والاشتراك في النفور من الحياة بأعباء الفوضى، والانقسام.

الإرهاصات تسبق النبوة

وكان لأصحاب هذا المذهب الذي أومأنا إليه آنفاً وهم "طبقة الحنفاء" أو "المتحنفين" من الشعراء كثير الفضل، وعظيم الأثر في هذا التطور السريع الذي أفضى بالأمة العربية إلى عدم الرضا بتلك الأديان الشائعة خاصة، خاصة "الوثنية" والرغبة الأكيدة في النقلة إلى عهد من السلام، والعرفان ينبعث الناس من خلاله في معاشتهم، ووجوه منافعهم، وهم في حراسة الشرائع، وحماية الأوضاع المهددة فكان ذلك إرغافاً، وتهيداً صالحاً لظهور النبي المنتظر ألا وهو سيدنا محمد ﷺ

ظهور الإسلام

إن الدين الإسلامي الذي دَعَا إلى عبادة الله سبحانه وتعالى " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " أساسه : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وجعل الجهاد من أجله فَرَضًا ، وأذنهم أنه لا يغفل أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وبذلك وحد بينهم في العقيدة ، وجمعهم في صعيد واحد للعبادة وكان هذا الاتحاد القلبي هو النعمة الجليلة التي امتن الله بها عليهم حيث يقول لهم سبحانه ،

﴿وَاذْكُرُوا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتَابٍ وَمِنْكُمْ أَخَوْنَا﴾

[آل عمران: ١٠٣]

الناحية الأدبية

لقد كان للحياة الأدبية مظاهر يجدر بمؤرخ الأدب أن يقف عندها قليلاً كي يستشعر القارئ ما كان لظهور الإسلام من مدِّ فياض أكسبها رُقياً ، وإصلاح عظيم أفاض عليها نهوضاً وهي تنحصر في الخطب القليلة الماثورة عنهم في أقوال كُهانهم وكَوَاهِنهم ، وفي تلك الأمثال والحكم المشهورة والشعر .

أما الخطابة عندهم فكانت قريبة من الشعر في التأثير والقوة وإن كانت مقامات الخطباء لم يعرف عنها إلا القدر اليسير ولا شك أنه كانت لهم مواقف متعددة يستعينون فيها بخلاصة ألسنتهم وهيبتهم وقوة تأثيرهم عند التأهب للقتال وفي شهود المواسم ، وعند التنافر إلى الحكام ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب والوفادات إلى الملوك ، والسفارات بين القبائل لعقد الصلح وتأمين التجارات

واحتمال ديّات القتلى في الحروب ، ومع ذلك لا يزيد جميع المأثور عنهم في ذلك عما عرف لكاتب واحد من أدباء العصور المتأخرة .

وقد قيل إن " قيس بن خارجه " الذي اشتهر بالخطابة في حروب داحس والغبراء سُئِل عما عنده في حُمّلات " داحس " فقال ،

" عندي قَرَى كل نازل وأمان كل خائف ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب أمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . وإن خطيباً يستطيع أن يقف من طلوع الشمس إلى غروبها موقفاً واحداً يحيب الناس فيه إلى الوثام والتواصل وينفرهم من الانقسام والفرقة ثم يعاصر حرباً كما يقول المؤرخون أنها دامت أربعين سنة لم يكن جديراً بأن يغفله التاريخ ولا يعرف من آثاره إلا هذه الكلمات القليلة . وذلك بالضرورة ليل قاطع على أن النثر العربي في هذا العصر قد تبدد وأقلت معظمه من التقيد والحفظ ، وليس معنى ذلك أننا لا نؤمن بأن العرب في هذه الفترة من جاهليتهم لم يكتثروا من الخطب في تلك المواقف المتعددة التي أشرنا إليها فيما سبق .

وقد تظاهرت الروايات على بعض آثار قليلة من الخطب كان لمعظمها علاقة شديدة بالتطور المنتظر للجزيرة العربية وتشمل نصوصها على كثير من المعاني الدينية كخطبة " قُيس بن ساعدة " المشهور وهو خطيب العرب في " عكاظ " وأسقف " نجران " المشهور وشبيه بما في غرضها ومعناها وقد رواها " أبو علي الحقي " في أماليه ، ويتصل بذلك شيء مما أثير عن " أكتّم بن صيفي " وبالنظر لشهرته بين العرب بالرأى والحكمة اشتد الحرص على حفظ ما ينسب إليه ، من ذلك موقفه في قومه من بني تميم في بدء ظهور الإسلام وإهابته بقومه أن يتبعوا

هذا الدين الجديد ويكونوا أول المساعدين على بث دعواه ونشر تعاليمه ، في العرب وما ذكرناه عن الخطابة والخطب يتناول الكهانة والكهان .

ومواقف العرب في المناقرات التي أشهرها ما وقع بين ' عامر بن الطفيل ' وعلقمة بن علاثة العامريين ' فقد قيل إنهما تلاقيا وتنازعا الشرف في حبيهما وقومهما ، ثم اقبلا يتحاكمان إلى أشراف العرب حتى دفا إلى ' هرم بن قطبة الفزاري ' ففصل بينهما بكلمته المشهورة وهي قوله لهما " أنتما كركيتي البعير الأردم تقعان إلى الأرض معا وتقومان معا " ولولا أنه قيل هذا الحكم قد خوف كل واحد منهما من صاحبه بما كان يظهره عند الخلوة بأحدهما من التضعيف له والتهوين من شأنه والإشادة بفضل صاحبه عليه وبعد المدى بينهما في الفخار والشرف والمجد لصح أن ينقضا عليه حكمه بقول أحدهما فأيهما اليميني ؟ ولكنهما كانا يشفقان من هذه الحكومة ويخشى كل واحد منهما أن يقضى عليه .

وقد أثر كذلك من أقوال الكهان وأسجاءهم التي كانوا يعبرون بها الرؤيا ويفصلون بها في الخصومة ما لا يصح أن يعتد به أو يتخذ دليلاً ، على قيمته ما كان لهم من الأدب المنتور لقلته ، وعدم غنائه في هذا السبيل كالذي حفظ عن " شق وسطيح " الكاهنين واتفاقهما على تفسير رؤيا " ربيعة بن نصر الخمي " وما لاقاه في ذلك من الإجبار بغزو الأحباش لبلاد اليمن .

أما موقف المؤرخ مما أثر عن العرب من الأمثال والحكم فقد يكون أحسن حالاً مما سبق لكثرة ذبوع هذه الأمثال والحكم ولقربها من الشعر في سهولة التقيد والحفظ لاشتغالها على جمال التشبيه ، وقصر العبارة ، ولقيامها لهم بإفحام الخصم وإصابة الصواب ، وفصل الحجة عند اشتداد الجدل بين الخصوم وظهور الرغبة من

المختصين في الغلبة بالحجة والغلبة للمنازع ولذلك كانت حاجتهم ماسة إلى حفظ هذه الأمثال والحكم فبقى منها قدر صالح ، ولا يفوتنا هنا أن ننتبه على مقدار ما تدل عليه هذه الكثرة من الأمثال والحكم من جهة سهولة فتدعها عليهم وتقبيدها لكثير من المشاهدات والوقائع عندهم ، فهي أقوى الأدلة على ما تأصل عند العرب من ملكة البيان وشدة مطاوعة اللسان ، وتشير أيضاً إلى ثقوب ذهن ويقظة فطنة لكل ما وقع تحت الحس من المشاهدات والأحوال وهي فضلاً عن ذلك كله مشتقة من البيئة البدوية وممثلة لحالة الاجتماع العربي وأكثر ألفاظها مأخوذ مما كان يستخدمه العربي في حياته العامة من سلاح ولباس وماعون ونحو ذلك مما يجرى مجرى الحكمة القائمة لهم في كفهم عن الغرابة وهديبهم إلى الرشد وقام الحكام المسلمون والقوانين الرادعة كقولهم : قبل الرماء ثلأ الكنائن " " إن العوان لا تَعْلَمُ الخُمْرة " " تجوع الحُرّة ولا تاكل بثدييها " " إن البلاء موكل بالمنطق " إلى غير ذلك كثير مما دون في كتاب " أمثال الميداني ، وجمهرة الأمثال " لأبي هلال العسكري " وأمثال " المفضل الضبي "

وأما الشعر فلم يكن للعرب في حياتهم الأدبية أكرم مظهراً منه ، جعلوه ديوانهم ومستودع فخارهم وأيامهم ومآثرهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وديانتهم وعقليتهم ، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم وقديماً أنتفع الأدباء بشعر العرب في الجاهلية فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم وعرفوا منه أخلاقهم التي يمدحونها والتي يهجونها واستدلوا به على جزية العرب ، وما فيها من بلاد وجبال ، وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون في الجن والأصنام والخرافات ، وآلفوا في ذلك جميعه الكتب المختلفة .

ولا يعني أن نبحت عن أوليته ولا عن روائته ، ولا عما يشغل بعض المجددين من البحث في سبقه على النثر ، أو تقسيمه إلى قصصى وغنائى وتمثيلى واتخاذ بعضهم من هذا التقسيم معنى للحظ من مقام الشعر العربى معتمداً فى ذلك على اتخاذ الأدب اليونانى مقياساً له فى الاستحسان والاستقياح لما يعالجه من البحث فى تاريخ الأدب العربى والشعر ، بدعوى أنه لم يوجد فيها قصص ولا تمثيل بهذا المعنى ، فذلك بالضرورة بعيد عن دائرة بحثنا الذى نستخدمه كمقدمة تهديدية لتطور الأدب والموازنة بين الأدب الجاهلى والأدب الإسلامى الأسمى .

وفى هذه الفترة نهض الشعر نهضته المشهورة ، وتظاهر شعراء القبائل المختلفة فى أنحاء الجزيرة على الاشتراك فى الإصلاح العام ، واقترن بذلك صيرورة اللغة العربية إلى وحدة لغوية جامعة متمثلة فى لغة قريش التى تغنى بأسلوبها الشعراء من الأشراف والصعاليك فى السهول والجبال ، وتسairت بها مواكب القرىض فى المواسم والأسواق ، وعند الملوك والسوقة وفى الحروب والمفاخرات حتى لم تخلُ بادية من البوادرى ولا مصر من الأمصار العربية من الشعراء والرواة الذين كانوا يحفظون الأشعار ويذيعونها فى الأفاق ويتناشدونها فى الأسفار ، وكانت هذه الوحدة اللغوية مهيئة لبلوغ العرب إلى وحدة اجتماعية وانتشار الشعور بالحاجة الشديدة إلى ترك التناوب والفرقة وتوجيه الفكر إلى الموثام والاتحاد ، تومئة لاستقبال عصر جديد وعهد مقبل من الإصلاح أصاب العالم بدرجة عنيفة لم يقتصر أثرها على الجزيرة العربية ، بل تعداها إلى غيرها من الأصقاع العامرة يومئذ ، وهو ظهور الإسلام .

الناحية الاجتماعية

أراني مضطراً للكتابة عن الحياة الاجتماعية ، مُلماً بها إماماً مُجْتَلِاً وإن
أغفلها المنهج - لتفسير ما قد يكون لها من الأثر الأدبي الذي يبدو في الشعر والنثر.

مقومات المجتمع :

وتعني بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة أو الجماعة من
الأسباب والصلات ، التي تكونها الحياة الاقتصادية ، والسياسية والدينية
والعلمية ، والأدبية ، تلك الأمور باقتراحها ترسم للأمة صورتها الاجتماعية
ومنهجها الحيوي الذي يكسبها التقدم والسعادة ، أو يكتب لها الشقاء والانحطاط .
فالدين القويم ، والعلم الصحيح ، والخلق الكريم ، والعدالة الشاملة والحكومة
الحازمة الرشيدة ، والعيش المنتظم المارِق كل تلك إذا توافرت لشعب هيأت له من
سعادة الحياة واطرادها ورقبها ما لا يحظى به شعب مغلوب على أمره ، يشقى
بجهالة عمياء ، أو انحلال خلقى أو يدين لحكومة ظالمة خرقاء ، أو يحيا ناضب
المورد ، سقيم العقيدة مفكك الأوصال ، ذلك ما نجد أمثله في التاريخ القديم
والحديث .

تحليل النفسية العربية:

نلاحظ أن الشعب العربي في الجاهلية كان يحيا حياة منعزلة إلى درجة
كبيرة ، فبقى لذلك محافظاً على ميزات القديمة لا يكاد يغيرها ، وصار لذلك أقرب
الشعوب السامية شبيهاً بأصله الأول في تكوينه الجسمي والنفسى جميعاً ، سمره
المصحراء ونحول الجسم وتوسط القوام ، وسعة العين ، وحدة الذكاء ، وصدق الحس
وسرعة الغضب ، وضيق الخيال ، ومادية الحياة ، وقصر النفس العلمى والفكرى ١

يعيش من عقله في وحدات فكرية هي خطرات طارئة مفككة ، فصار شعره لذلك أبياتاً فذة ، أو مقطوعات قصيرة أو قصائد ليست ذات وحدة موضوعية أو منطقية تلمس في شعره اضطراب حياته ، وتبصر حياته ونفسه مصورة في آثاره التي كأنها خياله تحكى عيشه .

ولا عجب ، فالأدب صورة الحياة الفردية والاجتماعية وربما كان ضيق الخيال ، وضعف المنطق ، ودنوا المثل الأعلى للعرب مانعاً من إنشاء الملاحم القصصية التي تحتاج إلى تاريخ محفوظ ، وخيال بارع ، وتنسيق قويم ، وابتكار بديع كما نلاحظ أن الشعب العربي معروف بالمنافسة الشديدة بين قبائله وكان من نتائجها تلك الغارات المشهورة التي كانت ولا شك نتيجة لهذا الاحتكاك والتزاحم على الموارد القليلة في البادية ، ولما رُكب في طبائع البدو في معظم الأحيان إلى درجة من الاندفاع والتهور ، واتجهت في النهاية إلى تقرير مبدأ الانتصار للعشير ظالماً كان أو مظلوماً ، تلك المبدأ الذي هديه الإسلام ورده إلى فضيلة الاعتدال .

وكانت هذه البطولة إحدى الدعائم التي قام عليها الاجتماع العربي في البادية ، وكانت سبباً فيما اتصل بأسماء كثير من أبطال العرب ومغاويرهم من مناقب الفخار والمجد التي تغنى بها الشعراء ، واتخذت مكانها بين الآداب الصامسية القديمة التي بقى صداها إلى الأجيال المختلفة ، وشداً على أوتارها غزاة المسلمين في زخوفهم ووقائعهم المشهورة .

ثم كان من آثارها ظهور المراثى العربية والأشعار المنوّهة بالبطولة والانتصارات الفاصلة ، وهي باب واسع في تاريخ الصامسة القديمة لا يزال يجد

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

فيه المتأديون شعاعاً مشيعاً للعاطفة النائرة وقصصاً محبباً إلى النفوس النازعة إلى منازل الفخار والعزة كما نلاحظ أن الشعب العربي لم تنح له الحياة العلمية المنسقة التي تنشأ عن البحث والاستنباط ، وتخضع لقوانين منطقية وتجارب طبيعية ، وهذا يحتاج إلى عيش قار ، وفكر هادئ ، ومنطق عريض ناجح ، لذلك كانت معارفهم معرضة للأخطاء والخرافات يتوارثونها ويوسعونها بما يتجدد لديهم ، ويتقل لهم من سواهم .

هذا ، وقد كان في الاجتماع العربي كثير من السوءات التي تُعد من أشدها دلالة على غلظ الأكباد وقسوة القلوب وأيديهم البنات خشية العار ، ودفنهم أولادهم أحياء خوفاً من الفقر وقد نعى ذلك عليهم القرآن الكريم ، وُعَيَّرَتهم به الأمم ، كما كانت عادة شرب الخمر ولعب الميسر فاشية فيهم إلى أن حرمهما الإسلام .

أثر الإسلام

هذه صورة مجملة للمجتمع البدوي الجاهلي الذي كان منعزلاً في جزيرته ولما جاء الإسلام غير من كل هذا ، فطالبهم بالجهاد ، والغزو في ممتلكات الفرس والروم ، فخرجت جماهيرهم كالسيل المندفع فأزالوا الأولى وخضعوا الثانية، واحتلوا ما اتسع من الأرض يقلحونها ويزرعونها ، واستوطنوا المدن يتمتعون بخيرها وتعيمها وأنهارها وسهولها ، فتبدلت بهم الحال ، ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوقونه في الجو المتلبد ، ويتسمعون في الريح المزعج وهكذا خلصهم الإسلام من خرافات الجاهلية وأوهامها التي قد رانت على قلوبهم ، وغيّر نفسياتهم في عقائدها وعباداتها ، وعاداتها ، وأخلاقها .

أشرنا فيما سبق إلى أن الحياة العربية في أواخر القرن السادس المسيحي وأول القرن السابع قد أخذت في التطور سياسياً ، ودينياً ، وأدبياً واجتماعياً وبدأت تستحيل أثناء هذه الفترة ، وأتى عليها فلم يغيرها طفرة وإنما قواها ، وعدل اتجاهها بتعاليمه الدينية الصرة فأخذ يصقلها ويدفعها إلى الأمام بالتدريج ، وأبى ذلك أن بقيت عادات جاهلية ، وتقاليد قديمة شائعة ، مدة القرن الأول للهجرة ومن مظاهر ذلك هذه الردة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ - ثم هذه الظواهر التي نراها في حياة الحطيثة ، وفحول الشعراء الأمويين ، وعند جماعة من الولاة الإسلاميين الذين تجاهروا بالإثم والعنف فلامهم الخلفاء ووقفوا بهم عند حد الاعتدال كل ذلك يدل على أن الحياة الجاهلية لم تُمَح من نفوس العرب تماماً بمجرد ظهور الإسلام ، وغنما بقيت آثارها مدة من الزمان .

ففي الناحية السياسية ، نجد أنها استمالت إلى جهاد باللسان وبالسلح فتوح وحروب ، فلا قتال إلا في نشر دين الله ، ولا غزو إلا في إعلاء كلمة الله . وفي ناحية الدين ، فقد استقر الإسلام واعترف به العرب واعتنقوه وتمت لهم وحدتهم الدينية .

بقيت الناحية الأدبية التي تعنيها هنا فقد أصبحت متصلة بالقرآن الكريم ، وكلام الرسول ﷺ - أولاً ، وبهذه النهضة الإسلامية ثانياً . لقد بهرهم القرآن ببديع أسلوبه ، ومحكم آياته ، وتلاؤم فواصله ، فحزوا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون ، ثم رأوا في كلام الرسول - وهو منهم - فصاحة متدفقة ، وبلاغة متمكنة يخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف في لهجته كأنه نشأ فيهم وزُيى في أوساطهم ، فأخذوا يقصدون قصده ، وينهجون نهجه حتى ازدانت ألفاظهم ببريق ألفاظه وأشرقَت معانيهم بغرر معانيه . وكان من أثر الإسلام أن هجرت ألفاظه وجدت ألفاظ وماتت ، وماتت معان ونشأت معان وعدل من أغراض إلى أغراض وما هذا بالمحتاج إلى إيراد للشواهد وضرب الأمثال للأمثال ، إذ سيأتى في البحوث التالية .

الأدب الإسلامي (تكوينه - عوامله)

لما كان الأدب صورة الحياة السياسية والاجتماعية والفردية كان من الطبيعي أن يتأثر بهذه الحياة الجديدة التي أحدثها القرآن في الحياة الإسلامية الجديدة التي ظهرت في تدين الأدب العربي وتحضره ، فقد كان أدباً بدوياً يتناول الصحراء وما يلابسها من حيوان ونبات وجماد ، وهو بذلك فعل ساذج جاهلي لا تجد فيه تفكيراً مضطرباً عميقاً ، ولا خيلاً مركباً ولا عاطفة عميقة ، فأخذ الإسلام - والقرآن - بيده وأحله محال جديدة في وادي النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس ، وبذلك أخذ يكتسب من هذه البيئات والشعوب تديناً وتحضراً بلين العيش ورقة المشاعر ، وكثرة المعارف فوجدت في الأدب الإسلامي فنون وموضوعات حضرية تتصل بالسياسة والدين والتقاليد الجديدة ، كما وجدت أساليب ومعاني طريقة هي عنوان مدنية جديدة.

وانتشر الأدب في هذه المواطن ، وقام بأسباب الحياة فيها فصار فيما بعد أدب بلاد الشام والعراق ومصر وإيران وشمال أفريقيا ، وقضى على الآداب واللغات القومية وحل محلها وصار يحمل اسم الأدب الإسلامي بعد ما كان يسمى الأدب العربي بما احتل من حضارات ، واحتل من آفاق .

ومر على تكوينه تحرر الفكر البشري ودعوته إلى التفكير والتخلي عن تقاليد الجاهلية وأوزارها إلى تعليم الإسلام وأخوته العامة التي نُوِّلَف بين النفوس والشعوب ولا تتعصب في وجه أهل الكتاب ، الذين عاشوا مع المسلمين في حوار وتعاون وأخوة لا ينكرها الإسلام ، كما كان للعلوم الإسلامية والنهوض بها - وذلك بسبب القرآن خدمة لتحقيق دعوته وتشريعه أو لجاراته حضارته الواسعة

المتشعبة ، أثر عظيم في الأدب الإسلامي ، كما كان للحركات الفكرية ، والثقافات الأجنبية ، الفارسية والرومية والهندية ، أثر في الأساليب العربية .

وهناك آثار مباشرة ظهرت في الأدب الإسلامي ، وكان لها طابع هذا العصر الجديد الذي يميزه من العصر الجاهلي ، ويمكن إجمالها فيما يلي ، -

١- اتخذ الإسلام نفسه موضوعاً للأدب ، بالجدل حوله والدعوة إليه ، وتناول أحداثه ، وقد ظهرت هذه الظاهرة منذ الهجرة وقيام الغزوات ، فصار الدفاع عن الإسلام ومهاجمته مشغلة شعراء " قريش " والأنصار " (مكة والمدينة) ثم استحوالت الفكرة فيما بعد ، فصارت المعركة بين الإسلام وشعبة (من خوارج وشعبة ، وأمويين وعلويين وزبيريين إلخ) .

٢- هذه الفنون التي استحدثتها الإسلام ، وأخصها الشعر السياسي والهجائي والغزلي ، فقد كانت هذه الفنون بأوضاعها وخواصها المتمايزة ظاهرة إسلامية دعت إليها أسباب ، نتناول شرحها بالتفصيل فيما بعد .

٣- وبين الديانات والشعوب الأخرى حين نهض الموالي ، وظهرت مسألة الشعوبية قوية في القرن الثاني والثالث ، ثم تحققت مظاهرها لما نشأت الآداب والحكومات القومية .

وقد ظهرت هذه منذ واقعة " صفين " واستمرت إلى نهاية العصر الأموي وأحدثت آثارها في الشعر وفي النثر ، أي في هذه الخطب القوية الجزلة عند الخلفاء والأمراء ورجال الأحزاب المختلفة ، وفي الجدل حول المذاهب والآراء السياسية والدينية ، وفي المراسلات المطولة الجامعة ولاشك أن للقرآن فضلاً عظيماً في بروز هذه الفنون وظهورها حقيقة ذات سهولة ورقة من جهة وجزالة وقوة من جهة أخرى .

القرآن الكريم

هو كلام الله القديم ، وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله به قصم الله ظهر كل شيطان مرید ، وأذل به كل جبار عنيد هو الذي سمعته الجن فهتفت قائلة " أنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فلم نشرك به أحداً " هو الذي أحنى رأس الوليد ، والآن قلب " عمر " هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويعد القرآن الكريم من الناحية الأدبية ، العامة والخاصة ، العامل الأول في تكوين هذا العصر الأدبي الجديد ، وفيما تلاه من الأعصر ، فالقرآن الكريم هو الذي نقل العرب من البداوة إلى الحضارة ، فارتقى بذلك أدبهم وهو الذي وصلهم بالأمم ، والثقافات الأخرى ، فأثرى بذلك شعرهم ، ونثرهم ، وهو الذي كون بهم إمبراطورية إسلامية كبرى ، فذاعت آثارهم واتسع أفقها ، وتعددت بيئاتها وهو الذي جعل العرب أو المسلمين يطبعون الحضارة العامة بطالع إسلامي خالد ثم هو من الناحية الفنية ارتقى باللغة وآدابها وفعل في الأدب العربي خاصة ما فعله في الشعب العربي أو الإسلامي عامة من تمدن ، وخصب في العناصر والموضوعات وذيوع ، وتسجيل لمظاهر الحضارة في العصور الوسطى وذلك حين انفرد بذلك الأدب الإسلامي بوجه عام .

لذلك كانت الخطوة الأولى في دراسة العصر الجديد هي دراسة القرآن الكريم ، ولكن لما كانت الدراسات القرآنية عريضة لا تكاد تحصى فإننا مضطرون هنا أن نقف عند النواحي التي تتصل بالأدب ، وكانت ذات آثار مباشرة فيه على أننا لإجمال ما استملعنا إلى ذلك سبيلا ، بدلاً من الإسهاب والإطناب الذي لا يتسع له مثل هذا المؤلف .

معنى القرآن

إن لفظ القرآن في اللغة هو " مصدر مرادف " للقراءة " ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْهُ] ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٧: ١٩] ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على سيدنا محمد ﷺ بوساطة " جبريل " عليه السلام على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي مدة بعثته ﷺ ، أو مدة رسالته ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة وهو من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ولفظ " قرآن " مهموز وإذا حذف همزة فإنما يكون ذلك للتخفيف وإذا دخلته " أل " بعد التسمية، فإنما هي للمُح الأصل لا للتعريف . وهناك تسمية أخرى للقرآن الكريم وهي " الفرقان " وأصل " مصدر " كذلك ، ثم سمي به النظم الكريم ، تسمية المفعول ، أو الفاعل بالمصدر باعتبار أنه فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول ، أو في السور والآيات بقول تعالى .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ١] وهنا الاسمان هما أشهر أسماء القرآن الكريم ويليهما في الشهرة من الأسماء " الكتاب " ﴿الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١: ٢] والذكر بقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَظُهُوُّكَ وَالْقُرْآنُ﴾ [سورة الرعد: ١٤] " والتنزيل يقول تعالى . ﴿... نَزَّلَ مِنْ حَيْثُ حَمِيدٌ﴾ [سورة نزلت من الآية ٤٢] * وقد تجاوز صاحب البرهان في علوم القرآن حدود التسمية فبلغ بها خمسة وخمسين اسماً وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها " نيفاً وتسعين اسماً " كما ذكره صاحب التبيان .

وقى الاصطلاح ، هو الكلام المعجز المنزل على النبي ف المكتوب في المصاحف والمنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته . وهذا التعريف جمع بين الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم " وإن كان القرآن قد امتاز بميزات كثيرة سواها .

نزوله

نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة بعثة النبي ﷺ: ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وعشر سنين في المدينة المنورة ، وقد نزل القرآن الكريم منجماً ، ومفرقاً لأسباب شتى ، ولحكمة بالغة يقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ٣٣ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَنْبِيْهُ ﴾ [سورة الفرقان: ٣٣].

ويقول سبحانه ، ﴿ وَفَرَأَيْنَا فَتَنَّهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْرٍ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦] وكان أول القرآن نزولاً قوله سبحانه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ ﴾ [سورة العلق: ١-٥].

وكان ذلك في شهر رمضان المعظم ، وقد نزل القرآن الكريم دفعة واحدة وحملة واحدة في " بيت العزة " وفي ليلة القدر ، فلما كان القرآن ذا قدر عظيم وشرف رفيع كان من المناسب لقدرة القرآن أن ينزل في مكان مناسب وعظمة القرآن فنزل في ليلة القدر ، في " بيت العزة " ثم أخذ " جبريل العليّ " ينزل به على سيدنا محمد ﷺ حسب الوقائع والأحداث . وهذا سر نزوله منجماً ومفرقاً . وليسهل على النبي ﷺ وعلى المسلمين حفظه فأول آية نزلت من القرآن في شهر رمضان قال تعالى .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وأخر آية نزلت هي قوله تعالى : ﴿ وَأَنقُضُ أَيَّامَ تَرْجُمُوكَ فَيُودَى إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١]

أما القول بأن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. هي خير ما نزل من القرآن الكريم فليس بحجة ، وليس هناك دليل على ذلك حيث إن المعروف والثابت أن هذه الآية لها مناسبة فقد قال يهودى لسيدنا " عمر بن الخطاب " ﷺ حين نزلت هذه الآية نحن معشر اليهود لو أن هذه الآية نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً لنا ، فقال له " عمر بن الخطاب " ﷺ " والله إننى لأعلم الناس على من نزلت ، وفى أى يوم نزلت ، فقد نزلت على رسول الله ﷺ فى عرفات ، فى يوم عرفات عام حجة الوداع ، وهل هنا عيد أعظم من اجتماع المسلمين فى عرفات .

وقد نزل بعدها على النبي ﷺ " قرآن " حتى بأكثر من شهرين ، وقد ورد عن " ابن عباس " رضى الله عنهما ، وأخرجه النسائى عن ابن عكرمة أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله سبحانه : ﴿وَأَنقَضُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]

وعاش النبي ﷺ بعد نزولها " تسع ليالٍ " ثم لحق بالرفيق الأعلى وذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول .

جمعه وروايته

جمع القرآن في أيام الرسول ﷺ

كان رسول الله ﷺ حين تنزل الآية ، أو الآيات أو السورة يحفظها ﷺ ثم يسمعهما للحاضرين من أصحابه فيحفظونها ، فكان كل ما ينزل يحفظ على الدوام . ولم يكتف رسول الله ﷺ بالحفظ بل كان يطلب كتاب وحيه ، ليقوموا بكتابة ما نزل من القرآن ، وأشهرهم " عثمان ، وعلى ، وزيد بن ثابت وأبى بن كعب " رضي الله عنهم أجمعين فيكتبونه فيما يسهل عليهم من " العُسْب واللخاف ، والرقاع وقطع الأديم ، وعظام الأكتاف والأضلاع للحيوان فكان القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مكتوباً في هذه الأشياء ، مثلما هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب لم يكن مجموعاً في مكان ، بل كان لدى أصحابه حينما لحق بربه ﷺ.

ولم يزل كذلك حتى كانت " حروب الردة " في زمن الخليفة " أبو بكر " رضي الله عنه واستمر القتل في " واقعة اليمامة " بالقرءاء " حيث قتل منهم " سبعون " قارئاً فخشي سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه على حفظه " القرآن " أن يستشهدوا في مواطن القتال ، فأهاب بأبي بكر رضي الله عنه أن يأمر بجمع القرآن ، فاستدعى رضي الله عنه " زيد بن ثابت " فقال له : " إنك رجل شاب ، وعاقل لا تفهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه يقول " زيد بن ثابت " رضي الله عنه " فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن " ثم قال " زيد بن ثابت " رضي الله عنه . فتتبع القرآن أجمعه من " العُسْب ، واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة " لدى الصحابي الجليل " أبي خزيمه " الأنصاري رضي الله عنه لم أجدها عند غيره فكانت تلك الصحف لدى " أبي بكر " رضي الله عنه حتى لحق بالرفيق الأعلى ، ثم عند سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه في حياته ، ثم عند السيدة الفضلى " حفصة " بنت سيدنا عمر بن الخطاب إلى أن طلبها سيدنا " عثمان بن عفان " رحمه الله تعالى .

جمع القرآن

زمن عثمان بن عفان ؓ

وفي عهد سيدنا "عثمان بن عفان" ؓ اتسعت الفتوحات وكثر العمران، وتفرق المسلمون في الأمصار، فكان كل إقليم يأخذ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة حتى ظهر اختلاف في وجوه القراءة أدى إلى الشقاق، والنزاع وكادت تكون فتنة في الأرض، وفساد كبير.

والذي حدث أن سيدنا "حذيفة بن اليمان" ؓ فطن إلى تلك الأمر، كما في رواية "البخاري" وهو يقاتل أهل الشام في فتح "أرمينية" و"أذربيجان" مع أهل العراق، فأفزعته هذا الخلاف، ولم يكد يعود من غزوه هذا حتى أسرع إلى سيدنا "عثمان بن عفان" ؓ وقال له، "أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصارى" فأرسل سيدنا "عثمان" ؓ إلى السيدة الفضلى "حفصة بنت عمر" وطلب منها الصحف التي كانت عندها، وقد ثون فيها القرآن الكريم وذلك لنسخها، وإعادتها "لحفصة" مرة ثانية فأرسلت "حفصة بنت عمر" الصحف إلى سيدنا "عثمان" ؓ فأمر "زيد بن ثابت"، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين "رضي الله عنهم جميعاً أن ينسخوها في المصاحف، وكان مما قال للقرشيين "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش" فإنه إنشا أنزل بلسانهم ففعلوا، وكان ذلك في خمسة مصاحف بعث بأربعة منها إلى "مكة" والكوفة، والبصرة، والشام، وأبقى المصحف الخامس لديه بالمدينة المنورة. ثم أمر بكل ما عدا ذلك أن يُحرق حفاظاً على كتاب الله من التحريف، أو الزيف، ثم ردت الصحف القديمة جميعها إلى السيدة "حفصة بنت عمر" وعرف مصحفه بالمصحف "الإمام" أو مصحف "عثمان".

أسلوب القرآن المكي

قبل الخوض في غمار المكي ، والمدني نود أن نُعرّف المكي والمدني ، والمدني هو ما نزل بالمدينة المنورة والصحيح والراجح هو : أن المكي ما نزل قبل الهجرة ولو كان نازلاً خارجها ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نازلاً خارجها .
لقد بدأ نزول القرآن الكريم في مكة مع البعثة المحمدية ، فاصطدم بالوثنية القرشية ، وكان بطبيعة الحال شديداً عنيفاً على هذه الجهالة الدينية الوضيعة ينذر العُصاة ويبشر المسلمين ، ضارباً الأمثال بهلاك الأمم التي طغت وكفرت بالرسول ، لافتاً الأنظار إلى آثار الأمم السابقة الهالكة ، وكان مع ذلك يضع الأصول العامة للدين الجديد ، بدلاً من التقاليد الوثنية ، ولذلك غلب على " القرآن المكي " هذه الموضوعات :

أولاً : التوحيد - لا إله إلا الله

ثانياً : الرسالة : محمد رسول الله ، والقرآن وحى الله إليه .

ثالثاً : البحث : فالموت يعقبه اليوم الآخر الذي يحاسب فيه الناس على ما قدموا في الحياة الدنيا .

رابعاً : الجزاء : فالجنة للأخيار ، والنار للأشرار هذه الدعوة القرآنية في مكة تستلزم أسلوباً خاصاً ، فكان هذا الأسلوب قوياً وموجزاً ، قصير الآيات والصور ، فيه السجع ، أو ما يشبهه من " ازدواج وموازنة " وهو أسلوب موسيقي عنيف ، لأنه وعيد وإنذار ، وإيقاظ لهذه النفوس التي تصنع الأصنام ثم تسجد لها ، وتعيدها من دون الله ، وهو أسلوب الخطابة الثائرة ، والغاضبة أيضاً ، وإن لم يكن من نوع الخطابة المعروفة للجاهليين .

القرآن المدني

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ونشطت الدعوة واستقر الإسلام بعد الغزوات الكبرى ، أخذ القرآن المدني يضع للمسلمين أصول الشريعة ، ونظم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، ويعلمهم شعائر الدين ، وقوانين الأسرة والتعامل ، وقواعد القضاء والحكم فصارت له بذلك موضوعات أخرى لا يعتمد على عنصر الشعور وحده ، وإنما تعتمد على العقل والروية ، فاستلزمنا لذلك هدوءاً وسعة في التعبير وكان الأسلوب لذلك مبسوطاً ، ومطولاً ، وهادئاً طويل الآيات والصور ، ومفصلاً تفصيلاً طويلاً إلا أن يجادل اليهود ، أو المنافقين فتعود إليه شدته لأنهم كانوا معاندين ، أو كائدين .

ومن هنا قلما نجد في القرآن الكريم من حيث صلته بمواعيد نزوله أو بموضوعاته العامة .

القرآن الكريم

ليس بشعر ولا نثر

إن القرآن الكريم ليس بشعر، ولا نثر، فليس هو من " بحر الطويل " أو " البسيط " أو " الوافر " وإن وردت فيه آيات على هذه الأوزان العروضية المعروفة ذلك لأن الشعر يجب أن يقصد لثاته ، وأن يؤلف من هذه المقطوعات ، والقصائد ذات الوحدة الوزنية العروضية المعروفة مثلما هو واضح معروف . وكذلك ليس القرآن الكريم من النثر المعروف " المسجوع " أو " المرسل " وليس من سجع " الكُهان " ذلك الذي كان معروفاً لدى " قس بن ساعدة الإيادي " وليس من المرسل الذي عرفه الكتاب فيما بعده ولا الذي نعرفه في أحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وخطب الخطباء ، فهو مخالف لهما أو هو كما يقول بعض المستشرقين – وسط بينهما ولكن مع ذلك " كلام موسيقى " له طابعه الخاص به يشبه الوزن ، ويمكن تبين خواصه الموسيقية العامة في نواح أربعة ، والقرآن يخالف بها الكلام النثري المعهود .

الموسيقى القرآنية وخواصها

إن للموسيقى القرآنية وقع وأثر عظيم في النفوس خاصة لدى المتذوقين لأياتها ، والفاهمين لكلماته فترى هؤلاء قد سرت معاني القرآن إلى قلوبهم بمجرد مصافحة الآيات لأذانهم . يقول سبحانه ،

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [سورة القمر: ١٧] " فانظر إلى بدء

الآيات والصور في مثل قوله سبحانه ،

أولاً : " يَتَأْتِيهَا النَّاسُ " و ﴿ حَمِّ ١ ﴾ [سورة غافر: ١] و ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ١٢ ﴾ [سورة الحجر: ١٢] و ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِلنَّاسِ ١٢ ﴾ [سورة الإسراء: ١٢] .

ثانياً ، نهاية الآيات كقوله سبحانه " يَعْلَمُونَ " " يُؤْمِنُونَ " " عَصِيًّا " و " نَحِيًّا " و " أَلْمُهْتَدُونَ " .

ثالثاً ، في داخل الآيات ، والجمل تجد تناسقاً موسيقياً بين الحروف ، والكلمات المتقابلة مثل قوله سبحانه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ ٢ ﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخَلَّفُونَ ﴿ ٣ ﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿ ٤ ﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿ ٥ ﴾ [سورة النبأ: ١-٥] فإننا نرى أن بين كل جملة وأخرى " تقابل " موسيقى في عدد الكلمات والحروف والحركات .

رابعاً ، العبارات ، أو الأسلوب : وتتألف العبارات أو الأسلوب من جمل ليست مرسلة شاملاً ، وليست مسجوعة شاملاً ، إذ ليس في آخرها قرائن ، وليست خالية من التقسيم الذي يشبه جمل السجع .

ففي القرآن " الفواصل " التي تقابل " القوافي " في الشعرو " القرائن " في النثر المسجوع ، ومن هذا الوجه يسمى " نقاد الأدب " الحديث " القرآن قرأناً " يعني أنه فن يخالف " فنى " المنظوم ، والمنثور .

ويراه في جملته موزعاً بين السجع ، والإرسال ، والموازنة بقوله تعالى ،
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٧٢]
فهو نشر مرسل ، وقوله تعالى : ﴿ أَزْنَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [سورة الاحزاب: ٧٢] وهو نشر مسجوع ، وقوله
﴿ أَلَيْسَ أَنْفَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [سورة الشرح: ١: ٣] وهناك ذكرك نشر مسجوع ، وقوله
سبحانه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [سورة النبا: ٣] عن النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ الَّذِي هُوَ مَخْلُوقٌ ﴾ [سورة النبا: ٣]
هو نشر موازن أو مزدوج .

الموسيقى القرآنية

ومهما يكن من هذا الخلاف ، ودواعيه ، فهناك صفة موسيقية سائدة
في أسلوب القرآن الكريم يخالف بها المنظوم ، والمنثور ، هذه الصفة نجدها في آخر
الآيات وفي الصلة بينها ، فعندما نقرأ القرآن لا نجد أنفسنا مسترسلين استرسالاً
سهلاً ، إنما ننتقل بين آيات وفواصل متناسبة ذات نظام أو تيار موسيقى خاص
طويلاً وقصيراً إلى حد أنك تستطيع في الآيات القصار تبين هذه الملاءمة في عدد
الحروف والكلمات وأوزانها وتجد التناسب الموسيقي بين الآيات المتوسطة
والطوال كذلك ، وكل سورة – مهما تكن – فهي مقسمة أقساماً طبقية يحسن
الوقوف عندها ، هذه الأقسام هي الآيات فليست مختاراً إلا أن تكون مريضاً
أو مجهداً في أن تجد هذه المقاطع الطبيعية التي تستطيع التنفس عندها .
فالقرآن الكريم مفصل تفصيلاً طبيعياً يضطرك لأن تقف عند فواصله ، إلا
أن تكون في حاجة إلى الإسراع .

فنون القرآن

وهناك نقطة ثالثة تتصل بالأسلوب وهي اختلاف الأساليب باختلاف الفنون العديدة التي استحدثها أو قواها " القرآن الكريم " ففي القرآن الكريم نجد القصص ، والحوار ، والتمثيل ، والوعظ ، والتقرير ، والمدح ، والهجاء " ولكل فن منها أسلوب معروف ، ودراسة هذه الأساليب تحتاج إلى فراغ طويل فأدار الحوار بالبراهين العقلية ، والخطابية وفصل فيه القول تفصيلاً رائعاً جريلاً ، وقص في سهولة وروعة ، وضرب المثل ، والحكمة موضحاً ، وواعظاً وشرعاً للناس شعائر الدين ، والدنيا ، ومدح ، وهجاً كل ذلك في سبيل غايته التي نتناول الكلام عنها هنا وفي هذا المضمار .

أغراضه وغاياته وفنونه

حين نوازن بين الشعر ، وبخاصة الشعر الجاهلي ، وبين القرآن الكريم من حيث الغاية فإننا نجد فرقاً واضحاً فالشعر مع اختلاف فنونه ، وأغراضه من مدح ، وهجاء وفخر ، وحماسة ، ورياء وغزل ، إنما يعبر عن لحظات شعرية طارئة متباينة لا تخضع لوحدة عقلية معينة وتنتهي غايته إما عند حد التعبير وكفى ، وإما عند التأثير في السامعين تأثيراً قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ولكن القرآن الكريم له هذه الأغراض ، أو الفنون التي أومأنا إليها قبلاً وهي كثرة كاثرة من " قصص ، ووصف ، وحكم ، وتشريع ، وهجو ، وثناء " لكنها في الوقت نفسه ذات وحدة ، أو فكرة رئيسية تسيطر عليها ، وتنتهي لديها من أجلها نزل القرآن الكريم ، وجاء الدين الإسلامي وهي فكرة التوحيد .

فالدعوة إلى التوحيد توجد صريحة مستقلة قبل كل شيء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ (سورة الإخلاص: 1) ونجد الوعظ ، وما يتصل به من ترغيب وترهيب يدور وينتهي إلى الإيمان بالله والواحد الديان .

والقصص لا يقصد به التسلية ، أو الفكاهة ، بل هو للإذكار ، والاتعاظ وإقامة الدليل على قدرة الله تعالى ، وما قص به شؤون السابقين ممن عصوا وطغوا ، وبلغوا ، وعاثوا في الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد . أما الذم فهو منصب على جماعات عارضت الدين ، وناصبته العداء والحرب ، سرّاً ، وعلانيةً ، فهو يذم المنافقين ، والنصارى والمشركين ، لا رغبة في الذم لذاته ، ولكن لإنكارهم التوحيد والمدح إنما هو لأفراد ، وجماعات قبلوا الدين الجديد وأيدوه بأموالهم ، وأرواحهم ، وأبنائهم ، وبذلوا في سبيل رفعته كلَّ غَالٍ ومرتخص ، فهو يثنى عليهم ، ويعدّهم بأحسن الجزاء والثوية ، ولبس ذلك حباً للمديح ، ولكن لقبولهم فكرة التوحيد حتى في التشريع المتصل بالزواج ، والطلاق والبيع والشراء ، والسياسة المتصلة بشؤون الجماعة الإسلامية وغيرها كل ذلك لتكوين شعب مؤمن بالتوحيد ، ويعيش في ظلال فكرته الأساس ، ودينه الصريح وينقلها من جيل إلى جيل .

فالقرآن الكريم يجمع بين الوحدة الفنية الخالصة ، وبين التنوع الذي يظهر في هذه الفنون المتباينة التي احتواها القرآن الكريم . وخلاصة هذه الفكرة الإجمالية هي أن القرآن الكريم واحد في غرضه ، وفكرته ، وأساسه ، ومتنوع في فنونه ، وأبوابه .

أما غايته الدينية وسياستها وهي نظرة موضوعية ، وشكلية فقد كانت جديدة أيضاً ، لأن القرآن دَعَا إلى دين جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ودعا فيه إلى مُثُل عليا، وتعاليم واضحة كاملة إيجابية يقيدها على أنقاض الوثنية أو المسيحية، أو اليهودية المشبوهة ويؤدي ذلك بأساليب متباينة حواراً ، وقصصاً وتمثيلاً ، وتقريراً ، وبرهنةً ، إلى نحو ذلك من سبل الإقناع والتأثير.

ويمكن ملاحظة ذلك بالنسبة للعرب الذين ظهر فيهم الإسلام ، ونزول القرآن . وإذا قمنا بموازنة بين القرآن ، والشعر الجاهلي ، فهذا الشعر لم يكن يعرض للناحية الخلقية ، ولا للمذاهب الدينية ، وما يروى عن بعض الشعراء أو الكهان – إن صح – لا يدل على مذهب واضح تام ولا على فكرة ناضجة معقولة تقوم على وحى أو دراسة وجميع ما ورد منها فكرة ضيقة لا خصب فيها ولا ناء بل تدل فقط على الشك ، والحيرة ، والقلق ، وعدم الاطمئنان إلى عقائد العرب ، والطمع في مثل أعلى يلائم حاجة هذه النفس العربية المتطورة – فخطية " قس بن ساعدة " الإيادي تُسمى إلى وجوب التبصر والاعتبار بالكون ومظاهره ، ولكن إلّا يدعو وما عقيدته ؟ وما مثله ؟ كل ذلك غير واضح ولا مفهوم كذلك الذين يسمون بالحنفاء فعن كل ما يعرف من أمرهم هو أنهم كانوا يكرهون الحياة الجاهلية وما فيها من " سَفَه ، وقَسَاوَة ، وغلظة ، وجفاء " عن المثل العليا ، وكانوا غير مطمئنين إلى اليهودية والمسيحية ، مع أنهم لم يكونوا يعرفونهما معرفة تامة فكل ما كان هو أنهم يتوقعون شيئاً جديداً يغير هذه الحالة ولكن ما هذا الشيء الجديد ؟ لا يعرفون هنا كله على فرض صحة آثارهم المروية لنا .

وضوح أفكار القرآن

أما القرآن فقد جاء بأفكار، وأغراض غاية في الوضوح والدقة، لا سبيل إلى الشك والحيرة فيها، ولا يختلف في فهمها اثنان، فهو ينكر الحياة الجاهلية في جملتها إنكاراً تاماً، لكنه يعرف لماذا ينكرها، وما ينكر منها، وما الذي يريد وضعه بدلاً منها، فهو ينكر عبادة الأوثان لأنها لا تلاءم كرامة العقل البشري الذي أنعم الله به على عباده وهم محاسبون على هذه النعمة، فإنه من غير الملائم للكرامة الإنسان أن يدين لحجر لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعقل فهذه الفكرة جلية واضحة في القرآن الكريم وغير خافية على ذي لب، فالقرآن لا يدعوهم إلى ترك الأوثان فحسب، بل يهدم لبني، يهدم عبادة الأوثان ليقيم مكانها عبادة جديدة يتقدم بها الناس إلى إله واحد موجود عالم قهار، فقد أحدث هذا العالم بعد أن لم يكن وصور ماضية أحسن تصوير، وأجرى ما فيه على قوانين هي أبدع ما يمكن أن يتصوره الناس، وهو يكرر هذه الأشياء، وفي كل مرة يزيدها وضوحاً وجلاءً لا يحتاج في فهمها أن يكون الإنسان عالماً، أو متفلسفاً أو من خاصة الناس وإنما هي دعوة جلية وواضحة ومبسوطة لأنها موجهة إلى الناس جميعاً.

وكما أن القرآن الكريم يجادل هذه الدعوة مجادلة واضحة ومفهومة، تجده كذلك يستدل على بطلان عبادة الأوثان بدلائل ميسرة وسهلة وواضحة ومفهومة يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ فَذَكِّرْ ۚ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ﴾

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٧﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴿

[سورة الفاتحة: ١٧: ٢٦]

فهو يتجه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم واتجاهات ثلاثهم هذه الطبقات ، وهو يقدر أن في العرب أناساً ليسوا وثنيين تركوا الأوثان إلى عبادة الله على نحو لا يراه ملائماً للحق ، ولا للطبقة الإنسانية ، فهو يهاجم الوثنيين ، ويهاجم ما في المسيحية من منافية للوحدانية ويهاجم أيضاً ما أدخله اليهود على يهوديتهم من باطل وزور ، وهو يناقشهم جميعاً مناقشة عقلية ثلاث عقلية اليهود ، والنصارى من العرب .

وهكذا نجد القرآن الكريم مجدداً في غايته بفكرة عالية واضحة كل الوضوح ، وميسرة للناس مهما اختلفت درجاتهم من الثقافة وعقلياتهم من الرقي .

تأثر العرب بالثقافة القرآنية

هذا اللون من الفكر، والدعوة إلى مثل أعلى لم يكن معروفاً لدى العرب فليس غريباً، ولا عجيبةً، أن يكون لهذا الكلام، ولما فيه من تجديد أثربالغ في النفوس العربية فيجعلها تعيش في حالة انبهار تام وخاصة بعد انتهاء الخصومة، وزوال الخلاف ويطمئن الناس إلى قراءة القرآن، والتفكير فيه بهدوء واطمئنان حتى يكون الحكم عليه عادلاً، فإننا ما نحقق ذلك اطمئنان الناس وآمنوا به أنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وليس غريباً أيضاً إذا قرأوه، وتدبروه أن تتغير عقلياتهم تغييراً تاماً، وذلك ليعد الفارق بين ثقافة القرآن وتلك الثقافة الجاهلية التي لم تتناول إلا الصحراء والإبل والظباء وهذه الخصال البدوية التي تدخل الشعر مديحاً وهجاءً – فأين ذلك من كلام يتناول الفكرة الدينية كأقوى ما يمكن، وبأساليب متباينة منها السهل والصعب والقصير، والطويل !!؟.

بالإضافة إلى ذلك أن الأساليب التي يتخذها القرآن لتحقيق هذه الفكرة الدينية تختلف اختلافاً في غاية الخصب، والفناء، فهو يثبت ما يلجأ إلى الجدل العقلي مرةً وإلى ضرب المثل مرةً أخرى، وإلى القصص حيناً، وإلى الإشارة إلى ما سبق في الكتب الدينية المقدسة حيناً آخر، وفي هذا كله يأتي العرب بأشياء جديدة لم يسبق لهم معرفتها فهم لم يعرفوا قبلاً أخبار الأنبياء، ولم يتعبدوا هذه الأمثال التي يضررها لهم القرآن. وهكذا نجد القرآن الكريم جديداً في "أساليبه ومعانيه، وأغراضه وغاياته" وكان من المنتظر أن يقلب حياة الأمة العربية ويغيرها سراعاً وبقوة، ولكن هذا التأثير سنتناوله إن شاء الله فيما بعد.

بلاغته وإعجازه

لا تفاوت بين آيات القرآن الكريم

لا خلاف بين العلماء على بلاغة القرآن ، وإعجازه ، بيد أن بعضهم يذكر قائلاً : إن هناك تفاوت في آيات القرآن الكريم فبعض آياته أبلغ من بعض ، وهذا في رأينا غير صحيح ، لأن الحكم على آية بالبلاغة متصل بظروف الآية ، وبالذين وجهت إليهم ، أي أنه يتصل بالمناسبة التي لا يستها ، فإذا درسنا القرآن الكريم على هذا الأساس ظهر لنا أن آياته كانت تنزل مُلائمةً للظروف التي ظهرت فيها وبذلك يتحقق لها معنى البلاغة من كل وجه .

ولكن مدخل الشبهة على هؤلاء أنهم يرون آيات منها سرد لأسماء ، أو فيها تكرار ، أو تنظيم ، وهذه يرونها أقل روعة من آيات أخرى فيها حُسْن تصوير أو إيجاز ، أو تمثيل ، أو كناية ، أو غير ذلك فبذلك يفرقون بين قطعة ، وقطعة أو بين فن ، وفن غافلين عن هذه الملاءمة التي أوماننا إليها ، وبذلك يفاضلون بين آيات القرآن بلاغياً ، وهذا مصدر الخطأ ، وسوء التقدير

وعلى ذلك فأول نقطة نذكرها لدى الكلام على بلاغة القرآن الكريم هي ملائمته للأحوال التي ظهر فيها ، من حيث الزمان والمكان ، والجنس ، ونفسية المخاطبين ، والحال العامة للبشرية كلها في كل زمان ومكان . وهناك بحوث تتصل بذلك وهي " أسباب النزول " فهي تدل على مقدار الملاءمة بين موضوع الآيات ، ومعانيها ، وأساليبها ، وبين المخاطبين في كل أحوالهم ، فإذا تقدمنا قليلاً صادفتنا هذه الفنون البيانية التي أوماننا إليها آنفاً ، وكانت جديدة رائعة ومُلائمة لغاياتها ، ومحققة لما ترمى إليه ، وأما إذا وقفنا عند خواص الأسلوب فهناك أشياء كثيرة وسنشير إليها بإذن الله تعالى بشيء من الإيضاح .

فنون القرآن البيانية

الأمثال

هذه أمثال قرآنية ، والتي سارت حُججاً حاسمةً كما هي زينة الكلام وحسن وجمال مثل قوله سبحانه : ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ...﴾ [سورة الأنعام: ٦٧] و " كل حزب بما لديهم فرحون " وقوله تعالى : ﴿...ضَعُفَ الطَّلَبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج: ٧٣] و ﴿...نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى...﴾ [سورة الحشر: ١٤] و ﴿مَاعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَتَغُ...﴾ [سورة المائدة: ٩٩] ، و ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ...﴾ [سورة يونس: ٣٩] و ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ...﴾ [سورة الروم: ٤١] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [سورة الذُّر: ٣٨] .

التشبيه

وها هو ذا تمثيله التصويرى الرائع الذي يعد مثلاً عالياً في إبراز المعنويات في صور حية دقيقة ، يقول تعالى :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا لِّلْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ١٥﴾ [سورة الكهف: ٤٥] .
ويقول سبحانه .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ١٦ تُوَفَّى أَكْثَرُهَا كُلَّ يَوْمٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ١٧﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِّلَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ١٨﴾ [سورة إبراهيم: ٢٦] إلى غير ذلك مما هو كثير وشائع .

الكناية

وهذه الكنايات القرآنية التي تستعمل حيث لا يحسن التصريح ، وتؤدي المعاني أحسن أداء .

يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا لِمَ جُؤِدْتُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا...﴾ [سورة نساء: ٢١] وهي كناية عن " الفرّج " أي وقالوا لفروجهم لم شهدتم علينا فكّنى بالجلود عن الفروج . وهي غاية في الجمال ، والروعة وقوله سبحانه " ﴿...وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ سِرًّا...﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥] " يعني بكاحاً " ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا...﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩] " كناية عن " آدم " عليه السلام . وقوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَهُوَ تَجْمَةٌ وَجَدَّةٌ...﴾ [سورة ص: ٢٣] يعني امرأة وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ يُثْنُوْا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٨] كناية عن النساء ينشأن في الترف ، والزينة الشاغلة عن النظر في الأمور .

التعريض

والتعريض لون من ألوان الكناية التي أومأنا إليها آنفاً ومثاله قوله سبحانه: ﴿...قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ [سورة التوبة: ٨١] فإن المقصود بذلك هو التهديد للمتخلفين عن القتال ، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا...﴾ [سورة الأنبياء: ٦٣] بل فعله كبيرهم هذا سخريه به ، وبهم وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾ [سورة يس: ٢٢] يعني مالكم إلى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم .

الإيجاز

والإيجاز لون من الألوان البلاغية الواردة في القرآن وهو باب دقيق به يتفاضل البلغاء ، وفيه يتنافسون ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَكُنْمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّةً يُتَأُولَى الْآلِئِبِ ... ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩] .

وقد كان للعرب حكمة يعجبون بها ، ويعدونها من أوابد الكلم وهي قولهم " القتل أنفى للقتل " فلما نزلت هذه الآية القرآنية تضاءلت أمامها حكمة العرب وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق سبحانه وتعالى فإن الآية كلمتان وهما " القصاص ، والحياة " وكلمة العرب أربع ، والآية بريئة من التكرار الحاصل في كلام العرب وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر " الحياة " المحبوبة وجعلها نتيجة له . وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص كما تبين الآية أن القتل ليس تشفياً ، بل هو عدل وفي الآية تنكير لكلمة " الحياة " وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إن ليس كل قتل أنفى للقتل ، فإن ذلك يشمل الاعتداء وأن الذي ينفي القتل هو " القصاص " .

ومن أمثلة " الإيجاز " قوله تعالى : ﴿ مُذِرَ الْعَقَوِّ وَأَمْرَ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَنَهِلِئِ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩] .

وقد جمع الله تعالى في هذه الآية " مكارم الأخلاق " وقوله سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ... ﴾ [سورة الأنفال: ٥٨] ومما ذكرناه أنفاً يستبين لنا بوضوح وجلاء تأمّن أنه لا يستطيع بلّغ مهما أوتى من قوة البيان أن يعبر عن هذا المغزى بهذه الألفاظ حتى يصل مقطوعها ، ويبسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول إن كان بينك ، وبين قوم هُدنة فَخَفَّتْ مِنْهُمْ خِيَانَةُ أَوْ نَقَضَ

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

للعهد والمواثيق التي شرطت لهم ، وأذنتهم بالحرب لتكون أنت وهم في العام
بالنقض سواء ، ومنه قوله سبحانه ،

﴿ فَلَمَّا أَسْتَنْسَوْا مِنْهُ حَكَصُوا بِحَيْثُ... ﴾ [سورة يوسف: ٨٠] ومنه قوله
سبحانه ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾ [سورة الحجر: ٩٤] وقوله:

﴿ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزِفُونَ ﴾ (١٨) [سورة الواقعة: ١٩] وهكذا مما لا يمكن
استيعابه شأن القرآن في كل مناحيه .

وفي القرآن الكريم من ألوان البديع ما يطالعنا به كتاب " البديع " لابن
المعتر وكذلك في كتاب " إعجاز القرآن " للياقلائي ، وما تناوله بالنقد والتحليل
للإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " .

إعجاز القرآن

هذه البلاغة التي أو مانا إليها توصلنا إلى " الإعجاز للقرآن " وهي مسألة ذات تاريخ طويل ، ومباحث شتى ، وآراء متناقضة فمن قائل " بالصُرْفَة " ومن قائل " بالغيوب " ومن قائل " بالنظم " وربما كان القول بالبلاغة أجمع الآراء وأشملها إذ يتناول جميع ذلك ، فإذا فسرنا البلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " كما هو شائع ومعروف فإننا نجد جميع ما ذكر داخلاً في هذا المعنى لأن نفوس العرب حينذاك كانت متأثرة بعوامل قديمة جاهلية استدعت ذلك كله قصص الماضي ، وغيبت المستقبل وعلميات الحياة الراقية .

وهذا الأسلوب الرائع الذي لا يُستامى قد عاصر العرب وشكاؤهم قوية وألسنتهم جداد ، وجماهيرهم متطلعون إلى مندوحة من الغيب ، أو ظل من الشبهة يلقونها على القرآن عسى أن يُبعدوا جانبهم من الصلة بالسماء ، وتذليل الوحي وأنهم لو وجدوا إلى شيء من ذلك سبيلاً لما قصروا عنه ، ولأمعنوا فيه ، واتخذوا من قليل ما وجدوا منه احتجاجاً عنيداً وتوهيناً شديداً لسياسة الرسالة الإسلامية على الإطلاق ، ولكنهم بعد أن داروا بأعينهم فيما حولهم من الأشياء ، وبعد أن قلبوا ما أتى به رسول الله ﷺ من القرآن على عقولهم ، ومذاهبهم وراضوه باحتيالههم وألسنتهم ، واجتمع لهم مشايخهم وفهمائهم ، والقادة المخصوصون بالشرف والرياسة من عشائريهم ترأسوا فيما عرض من ذلك لهم ، فقال لهم " الوليد بن المغيرة " وقد اجتمع إليه نفر منهم في خبر طويل ذكرته كتب السير ، والتاريخ الإسلامي فقالوا له " قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له " قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا يرجزه ، ولا يقصيده ولا بأشعار الجن

والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعله ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته " قالوا " لا يرضى عنك قومك حتى يقول فيه قال " فدعوني حتى أفكر ، فلما فكر قال ، " إن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتعرفوا عنه بذلك ، ثم لم يمتد بهم اللجاج ، ولم تطل المعاندة حتى تبين لهم أنه الحق فآمنوا به وصدقوا بتنزيله ، ووحيه .

ونحن لا نتردد في أن العرب قد عرفتوا باللسن والفصاحة والبلاغة والقول فقد أمسكوا بزمام الفصاحة ، وأخذوا بتلايب البلاغة فكانوا بحق فرساناً في البيان ، وعمالقة في القول والبلاغة وكانت أمة العرب لا تعرف الفضل لرجالها إلا في شعريجيدون حيكه ، أو خطب يرسمون بطوالها ، وقصارها ولما كان ذلك يناسب أن تكون حجة " محمد " ﷺ عليهم هي " البيان والبلاغة " لأنها هي التي آمنوا بها فيما بينهم وعرفوا قدرها في نفوسهم .

فما لا ريب فيه أن القرآن الكريم قمة في الإعجاز البلاغي واللغوي وهذا مما لا يختلف فيه إثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان وهو مع بلاغته سليم التأليف خالٍ من الاضطراب وهذا هو الذي شغل علماء البلاغة فظلوا أجيالاً طويلة يميطنون اللثام عن أسرارها ، ويسبرون أغوار بيانه فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض الذي ينطوى عليه هذا العظم العجيب ، وذلك الأسلوب الراقى .

أثر القرآن في اللغة والأدب

إن اللغة العربية من حيث هي ألفاظ، وعبارات لهجة خاصة ونظام نحوي ممتاز قد تأثرت بالقرآن الكريم تأثيراً مباشراً يظهر فيما يأتي :

أولاً ، إيجاد كلمات جديدة للعرب قبل الإسلام والقرآن وهذه الكلمات متصلة بما أتى به القرآن من شعائر جديدة أو معانٍ طارئة جرت على لسان الرسول ﷺ - ووردت في الكتاب العزيز من ذلك كلمة الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، والمنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية وهو من دخل الإسلام بلسانه دون قلبه سمي منافقاً من نفاق اليربوع ، ومن ذلك قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - مات حتف أنفه - ولا ينتمطح فيه عززان .

ثانياً ، عكس ذلك أي إماتة الألفاظ كانت موجودة فلما ماتت معانيها ماتت ألفاظها من ذلك " المرباع " ، " والنشيطه ، والفضول " وهي أسماء لأقسام من غنائم الحروب كانت وفقاً على الرؤساء والسادة ، وحل محلها - ما ذكر في نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَوْا أَنْكَارَكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ وَالرَّسُولُ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ وَأَلَيْستُمْ ﴾ [الأنفال: ٤١] " إلخ .

ثالثاً ، ومن ذلك نقل الألفاظ من معانيها اللغوية إلى معانٍ اصطلاحية شرعية كلفظ " المؤمن ، المسلم ، والكافر " فالعرب إنما عرفت المؤمن من الأمان ، والإيمان هو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام وانسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء وكذلك كانت العرب لا تعرف من الكفر إلى الغطاء والستر وكلفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج والركوع والسجود فقد كانت لها معانٍ في الجاهلية غير معانيها في الإسلام وأما تأثر اللغة بالقرآن تأثيراً غير مباشر أي ليس من صميم تكوين حروفها وكلماتها فيمكن ذكره فيما يلي .-

١- نشر اللغة العربية وانتقالها بالقرآن الكريم إلى بيئات أجنبية جديدة في " مصر والشام والعراق وبلاد فارس والروم " تبعاً للإسلام وانتشار القرآن، إذ كان المسلمون من هذه البلاد يتعلمون القرآن ولغته تكميلاً لإسلامهم ، ومسايرةً للنظام الجديد وكان من ذلك ظهور علماء اللغة والأدباء والفلاسفة الإسلاميين من غير العرب ، وبذلك عرفت العربية بين الصين والاندلس وجنوب السودان .

٢- توحيدها ، فقد كان العرب نوى لهجات خطابية عدة، تخالف في الألفاظ والتراكيب واللهجات والإعراب ، ولكن لغة القرآن قضت على تلك اللغات أو اللهجات وحملت العرب جميعاً على اعتناقها وترك ما عداها، وقد حصل ذلك بالتدريج ، ولعله تم رسمياً أو غالبياً زمن " عثمان " لما كتب المصحف بلغة " قريش " وحمل عليها القراء والمسلمين وقد كان الرسول (ﷺ) ييسر على العرب القراءة بلهجاتهم أول الأمر مجازةً لملكاتهم اللغوية الأصلية المتوارثة ثم انتقلت هذه اللغة القرشية مع القرآن إلى البلاد الإسلامية فكانت اللغة الإسلامية الرسمية .

٣- سلامة الأداء في لفظ الحروف والكلمات وقواعد النحو والصرف وتكوين الجمل وذلك راجع إلى بقاء القرآن محفوظاً غير مُؤَيَّر ، ومنقولاً بالتواتر اللفظي وغير خاضع للتطورات التي آلت بلغات العامة فحفظ القرآن أسلوب اللغة وتكوين كلماتها وجملها ، ونعمة أداؤها سليمةً كما عُرِفَتْ أيام الرسول (ﷺ) وهنا يعترض بعض المستشرقين على هذه المحافظة الشديدة التي حالت بين اللغة وبين التطور ، ولكن تلك مردود إلى وجهين:-
أحدهما ، أن سلامة العبارة لا تغاير التطور مطلقاً ولا سيما ما هي عليه من سعة في تكوين الجمل والفقرات وقد حدث ذلك فعلاً دون معارضة هذا المثال القرآني فطوّعت اللغة لكل معاني وموضوعات الحضارة .

وثانيهما ، أن ذلك التطور العام الذي يرمون إليه ويمثل جهود الشعوب المختلفة في تكوين لغات فرعية عراقية ، ومصرية ، وشامية – وقد حدث فعلاً – لم يعرض فيه القرآن ورجاله بل قد يكون فعلاً آداباً قومية وسمح للغات الإقليمية أن تنمو كما شاءت – ونرجو لا يغضب هؤلاء النقاد – الفصحى سليمة تقيم هذه الألسنة والأقوام فهي مميزة ملائمة للصلات العامة بين بلاد الشرق العربي .

٤- احتمال هذه اللغة مظاهر الحضارة واستيعابها لشئونها وملابساتها فقد كانت في الجاهلية وقفاً على مقومات الحياة البدوية الساذجة ولكن القرآن ، قوّاه ونشرها وطوّعها لعلوم الفرس واليونان والهند والسريان ، وللعلوم الإسلامية الخالصة وطوّعها للفنون الأدبية التي زخرت بها الآداب العربية على يد الكتّاب والشعراء والفنّين والفلاسفة والمؤرخين ، فمثّلت بذلك دوراً خطيراً في تاريخ الحضارة الإنسانية .

أما الأدب فهو كما قدمنا قد تأثر بالحياة الجديدة التي أحدثها القرآن ومثّلت في تحضر الأدب ، وانتقاله من أدب صحراوي ساذج يدور حول الصحراء وحيواناتها ونباتها إلى أدب مثقف متحضر ذي فنون وموضوعات حضرية متصلة بالسياسة والدين والفكر العلمي الإسلامي العميق الذي أخذ ينتشر حتى دخل وادى النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس وقام بأسباب الحياة فيها ، وقضى على آدابها ولغاتها القومية وحل محلها ، ونهض بجميع العلوم الإسلامية والعربية الأصيلة والدخيلة ، وذلك إنما كان بسبب القرآن الكريم الذي قضى على الروح المتعصبة، وألغى بين النفوس والشعرب ، ولم ينكر لأهل الكتاب الذين وجدوا في جوار المسلمين ومعاونتهم ومسالمتهم ما يحقق معنى الأخوة والإنسانية ، ويتعاليم القرآن والإسلام الذي لم يرفض الحركات الفكرية، والثقافات الأجنبية ؛ الفارسية والرومية والهندية، وجد جيل إسلامي متحضر رقيق المشاعر، غزير المعارف .

الحديث الشريف

يراد بالحديث الشريف كل ما ورد عن النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير، ولما كان أصحابه قد عاشروه وسمعوا قوله وشاهدوا عمله ، وحدثوا بما رأوا وما سمعوا ، ولما كان التابعون قد عاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، اعتبر الحديث شاملاً لأقوال الرسول وصحابته والتابعين متى جاءت عن طريق المحدثين فإنها تأخذ حكم الأقوال المرفوعة إلى رسول الله (ﷺ) من جهة الاحتجاج بها .

تدوينه :

الذي نستفيد من حقائق التاريخ أن رسول الله (ﷺ) اتخذ كتابة للوحي، يكتبون آيات القرآن الكريم عند نزولها ، ولكنه لم يتخذ كتابة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن ، بل قد وردت أحاديث تنهى عن تدوين الحديث منها أن رسول الله (ﷺ) قال : " لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه ، وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب عني متعمداً فليتبوا مقعده من النار " .

الخلاف في تدوين الحديث : -

وروى عن ابن عباس قال : " لما اشتد بالنبي (ﷺ) وجع قال : " إئتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده " . قال عمر : " إن النبي (ﷺ) غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسينا " .

نعم ، وجدت أحاديث تدل على أنه كتبت صحف من الحديث في عهد رسول الله (ﷺ) كالذي رواه البخاري عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني لؤي عاصم فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبي (ﷺ) فركب راحلته فخطب فقال إن الله حبس عن مكة القتلى أو القيل قال أبو عبد الله كذا قال أبو نعيم وأجعلوه على الشك القيل أو القتل وغيره يقول القيل وسلط عليهم رسول الله (ﷺ) والمؤمنين ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدي ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار ألا وإنها ساعتي هذه حرّام لا يختل شوكتها ولا يُعضد شجرها وكأ أنقطع ساقطتها إلا لمنشد فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاتل أهل القليل فجاء رجل من أهل اليمن فقال أكتب لي يا رسول الله فقال اكتبوا لأبي قحافة " .

وكذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله (ﷺ)، وقد أراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الأحاديث المتضاربة فقالوا، إن النهي عن الكتابة كان وقت نزول القرآن الكريم خشية التباسه القرآن الكريم بالحديث. فالواقع أن أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي (ﷺ) أما تدوين الحديث في كتب فقد وقع بأمر الخليفة "عمر بن عبد العزيز" المتوفى سنة ١٠١ هـ فقد روى في الصحيح أنه كتب إلى أهل الأفاق أن "انظروا ما كان من حديث رسول الله (ﷺ) أو سنته فاجمعوه أو اكتبوه".

قبل، إنه استخار الله أربعين يوماً، ثم أمر "ابن شهاب الزهري" وأبى جريح، أو أبى بكر بن حزم، بجمع الحديث وتدوينه. فكان ذلك، وبعث بها جمع إلى الأمصار. ثم فُقد هذا المدون ولم يوقف له على أثر.

وأول من دُوِّن الحديث "محمد بن مسلم الزهري" المتوفى سنة ١٢٤ هـ والمعروف أنه كان يروى عن الصحابة مثل "عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي".

طبقات المحدثين : -

وقبل أن أول من دُوِّن الحديث "الربيع بن صبيح" المتوفى سنة ١٦٠ هـ وسعيد بن أبي عروبة، المتوفى سنة ١٥٦ هـ، ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلى طبقة "الزهري" كمالك بن أنس، وعبد الملك بن جريح، والاوزاعي، وسفيان الثوري، وحمام بن سلمة. وكان بنى كثير من رواه الحديث في هذا العهد يكتبون الأحاديث عند تلقاها ولا يكتفون بحفظها عن ظهر قلب، فإنما نجد في تاريخ طائفة منهم أن لهم كتباً يرجعون إليها عند الرواية. ونجد في تاريخ من يروون عن أمثال "الزهري" أن في مخالفتهم أجزاء كثيرة تحتوي أحاديث أخذوها عن أولئك الأئمة.

أصحاب المسندات : -

ويصل بنا البحث إلى أن مصنفات الطبقة التي جاءت بعد طبقة "مالك وأبى جريح". قد بلغت الغاية في جمع الأحاديث. وفي ذلك العهد صنفت مسندات كثيرة "كمسند أسد بن موسى الأموي" المتوفى سنة ٢١٢ هـ، ومسند "عبيد الله بن موسى العيسى

دراسات في الأدب ◆ ◆ ◆ في عصر صدر الإسلام

"المتوفى سنة ٢١٣ هـ. ومسند نعيم ابن حماد الخراعي" المتوفى سنة ٢٢٨ هـ. ومسند أحمد بن حنبل "المتوفى سنة ٢٤١ هـ.

وجاء بعد هؤلاء أصحاب الكتب الستة وأولهم "البخاري"، وآخرهم "النسائي" وما في الكتب الستة أو معظم ما كان مدوناً في الكتب المصنفة من قبل.

وهذه النظرة التاريخية تدلنا على أن أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي (ﷺ) ثم لم يرض قرنات حتى قيد معظم الحديث بالكتابة والتدوين.

أنواعه الأدبية : -

لقد عرّف رسول الله (ﷺ) بأنه صاحب دعوة، ومنشئ دولة، ومؤلف جماعة، فتكاثر الوفود على بيابه وتزاحمت عليه القبائل والجماعات مستسلمة لدعوته، مؤمنة بشريعته، مأخوذة بحديثه الجامع وبيانه الأجر، وبلاغته المتدفقة، وفصاحته المتمكنة.

فنونهم :

عرض عليهم ألواناً وفنوناً من تشريعه المدين، وحكمه البالغة، وأمثاله السائرة، وقصصه الحق، وقوانينه العادلة، ونصائحه الشاملة، بأسلوب يسيل نوراً وروعة، ويفيض رقة، وقناسة.

الأمثال : -

فمن أمثاله السائرة، "إن من البيان لسحراً"، "وإن الخبيث لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"، "إياكم وخضراء الدمن"، "إن مما يثبت الربيع ما يقتل حطاً أو يلم".

الحكمم : -

ومن نصائحه (ﷺ) في ثوب الحكمة والكلمة الجامعة "رُبُّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"، "التمسوا الرزق في خبايا الأرض"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"، "المرء مع من أحب"، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له"، "اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن"، "الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن"، "البطالة تقسى القلب"، "اليد العليا خير من اليد السفلى"، "زرغباً تزدد حبا".

"الوحدة خير من جليس السوء"، من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاً غيرها"، "لو تكاشفتُم ما تدافنتُم"، وكتب الحديث مستفيضة بالأمثلة الكثيرة والشواهد التي لا تُحصى على بقية الأنواع كالتشريع والقوانين والقصاص كما تفيض بالتراكيب المبتكرة التي لم تعهد لأحد قبله، ولم تؤثر عن بليغ سابق مثل "الآن حمى الوطيس"، "هدنة على دخن"، "هذا يوم له ما بعده"، "يا خيل الله اركبي"، "لا ينتطح فيه عنزان"، "رفقا بالقوارير"،

بلاغته : -

أحاديث الرسول (ﷺ) وإن كانت فيض الخاطر، وغفوا البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام ووسمة العبقورية ومطابع البلاغة، وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز كلام الرسول (ﷺ) بإسراق ديباجته، واتساق عبارته، وتساوق ألفاظه وتراكيبه، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول (ﷺ) يستعمل الغريب ويلتزم السجع ويخاطب كل وفد بلغته.

معرفة الرسول (ﷺ) بلغة القبائل :

والذي (ﷺ) لم يُعلم عنه أنه انتقل في تلك القبائل قبل البعثة حتى يحدق لغاتها، ومثل ذلك لا يكون إلا بالهام وعليم من الله، ولقد قال له "عليّ" - رضي الله عنه - حين سمعه يخاطب وفد "بني فهد": "يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه، فقال رسول الله (ﷺ): "أنبني ربي فأحسن تأديبي، بيد أني من قريش وريبت في بني سعد" تلك ينابيع ثقافته (ﷺ) ومن ذلك كتابه "لوائل بن حجر الكندي

"أحد قبائل" حضر موت" ، -

"إلى الأقبال العيايلة، والأرواع المشاييب....."

ومن: "وفي التبعة شاة لا معورة الألباط، لا خناك وأنطوا التبجة، وفي السيوب الخمس، ومن زنى من بكر فاصقوه مائة" واسوفضوه عاماً، ومن زنى من ثيب فاضربوه بالأضاميم ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر الكندي يترقل على الأقبال".

وللرسول قدرة عجيبة على التشبية والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وذلك ميزة أختصه الله بها فهو أفصح العرب منطقاً وأبلغهم قولاً، حتى لقد قال له " أبو بكر - رضى الله عنه - لقد طُفِّتَ في العرب، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك علمك ؟

قال رسول الله (ﷺ) ، " أدبني ربي فأحسن تأديبي "

أثر الحديث في اللغة والأدب : -

إن للحديث قيمة كبرى من جهة الثقافة والدين على منزلة القرآن الكريم، فإن كثيراً من آيات القرآن مجمل، أو مطلق أو عام، فيأتي الحديث مبيهاً له، أو مقيداً، أو مخصصاً من كل ما يتعلق بأدب، أو عبادة، أو معاملة.

الحديث لا يسمى الى منزلة القرآن الكريم : -

إن قيمة الحديث وإن كانت تقسم بطابع البيان والإلهام، والعبرية فإنها لا تسمو الى مكانة القرآن الكريم لأن القرآن كان يدون عند نزوله، وفرض على المسلمين أن يحفظوا بنصه.

﴿ فَمَنْ يَدَّلْكُمْ بَعْدَ مَا سَمِعْتُمْ فَإِنَّمَا إِثْمُكَ عَلَى الَّذِينَ يُبَيِّنُونَكَ، إِنَّ اللَّهَ يُجِيعُ عَيْنَ ﴾ (سورة البقرة: ١٨١)

وذلك بخلاف الحديث فلم يتم تدوينه إلا بعد قرنين من الزمان وكان قبل ذلك إما يروى معظمه من الذاكرة، وكثيراً ما تخون ويعتريها النسيان، والضياح، لذلك نال الحديث كثير من تفسير الكلمات والتراكيب. واختلاف الروايات، وزاد في ذلك أن أجاز بعض العلماء رواية الحديث بالمعنى وذلك لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين. وليس من هم الأديب أن يُعْنَى بما نال الحديث من الاختلاف والتبديل، ولا بما نال المحدثين من الجرح والتعديل، فإن الأدب إنما يعد الأحاديث، صانقها وكانها مذهباً من مذاهب القول له التأثير البالغ، والأخذ الشديد.

أثر الحديث في اللغة والأدب : -

إن جُلَّ الأحاديث يبدو عليها نور النبوة، وروعو الحق، ورواء الطبع، ورواق الفصاحة، فلا غرو أن يكون لها بعد القرآن التأثير البين في جميع الوجوه التي ذكرناها للقرآن الكريم فقد عمل الحديث كما عمل القرآن على شدن اللغة وتحضرها وجعلها صالحة

لكل ما جد من علوم وثقافات ، وحضارات ومعارف ، وكما كان للقرآن فضل عظيم في ايجاد كلمات جديدة لم تكن معروفة للعرب قبل الإسلام كذلك الحديث قد وضع الفاظ جديدة لما ستحدث من المعاني الدينية ، والفقهية ، وزاد في اللغة الفاظاً وأجرى فيها اشتقاقات ، كما توسع في معاني بعض الفاظها بما لم يعهد قبله ، فكان للغة مادة جديدة زادت في ثروتها اللغوية .

من ذلك تسميته " صفر الأول " ، " محرماً " وذلك حين أبطل الإسلام النسيء وحتم تحريم القتال وكذلك وصفه (ﷺ) لفارس ركبته بأنه " بحر " يعنى لا ينقطع جريه ، واسرعه ، وكذلك كلمة " الصير " ^(١) بمعنى الشق في قوله .

" من أطلع من صير باب فقد دَمِرَ " يعنى دخل . يقول " أبو عبيد " لم يسمع هذا اللفظة إلا في هذا الحديث . وكذلك وصفه " للزانية " بالزماره " في حديث أبي هريرة (ﷺ) أن النبي (ﷺ) نهى عن كسب الزماره " . يقول " تعلب " الزماره هى الزانية ، وسُميت بهذا الاسم لشيوخ أمرها كأنها تنفخ في بوق ، وهذه اللفظة لم تُسمع إلا في هذا الحديث . هذا إلى جانب الفاظ كثيرة جرت على لسانه - عليه الصلاة والسلام - في بيان الشريعة وفقهها . كما نجد النبي (ﷺ) قدرة عجيبة على التشبيه ، والتمثيل ، وذلك في مثل قوله (ﷺ) : " المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد وإن أُنِيخ استنخ على صخرة " ، وقوله (ﷺ) .

" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " .

وقوله (ﷺ) ، " لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَرْكَلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا تُرَزَقُ الطَّيْرُ تَغْذُو خِمَاصاً وَتَرْوُحُ بِطَاناً " ، وقوله (ﷺ) ، " مثل المؤمن كالنخلة لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً " ، وقوله (ﷺ) ، " المرأة كالضلع إن رمت قوامها كسرتها " ، ومن قوله (ﷺ) ، " الناس سواسية كأسنان المشط " .

أثر الحديث : -

إن أثر الحديث كثير ومبثوث في كلام الصحابة - رضى الله عنهم - وفقى خطيبهم خاصة في أسلوب من كثر اختلاطهم به ، وملازمتهم له ، أو كثرت رواياتهم عنه مثل سيدنا

(١) الصير : الشق ، والفتحة ، وصير الباب خرمة ، وثقيه والفتحة فيه .

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

"أبي بكر" رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي وأبي هريرة، وعائشة، وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم أجمعين .

هذا وللحديث مثل ما للقرآن فضل كبير، ولغتنا القراء، وضادنا الدعاء، وذلك يتجلى في حفظها هذا العمر المديد، والمساحة الزمنية الواسعة التي لا ينتظر أن يزولا لأنها أي القرآن والحديث منبع الدين وموطن التشريع، وموضع الاستشهاد، ومحل الاقتباس تلك بالإضافة إلى عناية المسلمين الفائقة بالعلوم الشرعية والعربية . تلك العناية التي هدفها وغايتها الحفاظ على "القرآن والحديث" حتى يبقى للأجيال المتعاقبة من المسلمين سالمي البناء، معروفين، وغير مجهولين . وهذا من تدبير المولى – سبحانه وتعالى – لحفظ دينه، وبقاء كتابه ما بقي من الحدثان .

الشعر في عصر البعثة الإسلامية

ظهور الإسلام أثار الجدل : -

إن ظهور الإسلام كان نهضة جديدة تناول نواحي الحياة العربية كلها ، الدينية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ثم تناولت الحياة البشرية كلها بعد ذلك . ذلك لأن الإسلام رسالة بشرية عامة ، وهذه النهضة اقتضت معارضة من ناحية ، ومؤازرته من ناحية أخرى ، يعنى كان لها خصوم وأنصار . وقد كان الخصوم أول الأمر كثرة كاثرة وعنيفة وقوية ، وذلك الأمر يستتبع نهضة أدبية تلازم هذه الدعوة ويظهر فيها الجدل والخطابة والشعر ، وقد كان ذلك كله طبعياً وواقعياً لا شك فيه ، لذلك كان على مؤرخي الآداب أن يقفوا عند هذه الفترة الانتقالية لبيان وجه الحق فيها ولاسيما ما شاع من أن القرآن حرم الشعر وصرف الناس عنه .

يقول "ابن خلدون" في الفصل الستين من آخر مقدمته عن الشعر وقوله ما نصه " أن انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي (ﷺ) وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى دينهم الأول " .

يستفاد من كلام " ابن خلدون " ثلاثة أمور : -

- ١- أن العرب انصرفوا عن الشعر عند مبعث الرسول (ﷺ) لانشغالهم بأمر الدين والنبوة ، وماراعهم من بلاغة القرآن ، فشغلوا عن الإنتاج الأدبي شعراً ونثراً .
- ٢- إن الدين لم يحظر الشعر ولم يحرمه .
- ٣- إن الرسول (ﷺ) كان يشجع الشعر ويثيب عليه .

على أن المشهور أن الدين حرم الشعر لقوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاؤون " . وقوله سبحانه : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " . وإذا صح " لابن خلدون " آخر كلامه فليس من الحق المطلق أن نوافقه على كلامه ، وإذا فما الرأي ؟ يلاحظ ما قلناه عن هذه النهضة الجديدة وما تستلزمه من نهضة أدبية والواقع أن مدة " مكة " كانت جدلاً ثرياً بين الرسول (ﷺ) وقومه من " قريش " ثم كانت الخطابة تصدر عن الرسول (ﷺ) في الغالب أحياناً ، وأما الشعر فلم يكن " لقريش " منه حظ ذو خطر لذلك بقي كما هو في " مكة " قبل الهجرة وإذا لا يقال عن فتور الشعر هذا أن سببه الدين ، بل المسألة ليست إلا نوعاً من مسابرة الحالة القديمة " لقريش " فلما كانت الهجرة ووقفت المدينة أمام مكة أو الانصار أمام " قريش " ثار الشعر ونهض نهضة قوية ونشأ من ذلك مرستا " مكة " والمدينة " كما هو معروف مشهور وظهرت شاعرية " قريش " أمام شاعرية الانصار ، ولم يكن لا عليها ولا لها ليس ذلك معقولاً أبداً .

والواقع أن الدرس التاريخي يدلنا على أشياء عجيبة منها إظهار الشاعرية القرشية كما يلي وإظهار شعراء لم يعرفوا من قبل ومنها أن الشعر يتخذ الدين موضوعاً له يُنِيب عنه ، بل شعراً يقال حتى في الردة نفسها وفي أيام الغزوات والفتوح الأولى حتى العصر الأموي ذلك " حسان بن ثابت " ثم " كعب بن مالك " ، و " عبد الله بن رواحة " أقاموا أنفسهم شعراء الرسول " مدرسة المدينة " يدفعون عنه قريشاً ويقفون لشعراء مكة ويفحمونهم .

وأولئك " عبد الله بن الزبير " ، " ضرار بن الخطاب " ، " عباس بن مرداس " ، و " عمرو بن العاص " ، وأبوسفان مدرسة مكة ، وغيرهم يقفون في وجه الدين ورسوله وشعرائه بعد الهجرة ، تجد شواهد ذلك في سيرة ابن هشام ، وفي الشعر الذي قيل حول الغزوات " كبدر وأحد " ، والخندق وسواها .

فالقول بأن العرب انصرفوا عن الشعر وشغلوا بالأحداث والقرآن قول لا يسلم كما رأيت ، بل المفروض أن تلك الأحداث تستلزم الشعر وتشجع عليه ، وإن

كنا نرى شاعراً أنصرف عن الشعر إلى القرآن ، فنذلك " ليبيد " كما يروى أحياناً وهو استثناء يثبت القاعدة ، " وليبيد " على كل حال لم يهتم بالشعر بعد الإسلام ، حتى صفوا له بيتاً واحداً في الإسلام إن صحت الروايات . هذا هو الوجه الذي يؤيده الواقع .

الاحتجاج بالآية وموقفنا منه : -

إن الدين لم يحظر الشعر حظراً مطلقاً كما يتوهم الناس ، والذين يحتجون بالآية ، ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]

فاتهم أن القرآن انتصر لجماعة من الشعراء إلخ آخرها ، مما يدل على أن الدين لم يحرم بيتاً الشعر ولعله حرم منه ما أتى بالشعر وصرف عن الإسلام . كذلك الذين يحتجون بالآية الثانية ، لم يراعوا أنها نزلت تنفي الشعر عن القرآن وعن الرسول (ﷺ) إنه شاعر وإن القرآن شعر ، فنزلت الآية تنفي الشعر عن القرآن لأنه حقاً ليس بشعر ، وعن الرسول لأنه ذو مبدأ جدي أرسل لإبلاغه ، على أن مسلك الرسول (ﷺ) وخلقاؤه من الشعر كان يستمع إلى الشعر ويقول لحسان :

" ما منع الذين نصروا الرسول بأستنتهم أن يمنعوا بأستنتهم " . يريد الأنصار وحسان بن ثابت . فكان " حسان وكعب وابن رواحة " صدى هذه الكلمة ، وأكثر شعر حسان الإسلامي كان في مدح الرسول (ﷺ) وورثائه والدعوة له والدود عنه ، فكان شاعر الرسول حقاً ، ويمكن قراءة ذلك في مقدمة دلائل الإعجاز .

لم يكن لقريش شعر في الجاهلية : -

إن الإسلام كما أشرنا قبلاً أظهر الشاعرية القرشية وقواها فمن المعروف كما يقول " ابن سلام " أن قريشاً لم يكن لها في الجاهلية حظ من الشعر وقد يرجع ذلك إلى حياتها المطمئنة البعيدة عن الأحداث التي تنثير العواطف أو إلى انشغالها بالتجارة والرياسة فانصرفت عن هذا الفن الجميل الذي انحطت قيمته أحياناً ، أو إلى انعدام قيمتها الشعرية فبقيت ملكتها خامدة حتى بعثها الإسلام .

ويلاحظ أن هذه القوة قد بدت بعد الهجرة حين وقف الأنصار في "بدر" وأخذوا يفخرون بالنبي (ﷺ) ويدافعون عنه على لسان "حسان، وكعب، وابن رواحة. فقام من قريش جماعة يردون على الشعراء الأنصار أخصهم "أبوسفیان، وعمر بن العاص، وعبد الله بن الزبيري، وضار بن الخطاب" وهذا الشعر نفسه كان جاهلياً في الغالب هو فخر وحماسة وهجاء على مثال الشعر الجاهلي، فمعانيه بأس وكرم ونجدة على أنه كان قليلاً هيناً ولعل أول شاعر قرشي وقف يزاحم الشعراء بمنكب ضخم هو "عمر بن أبي ربيعة".

مدرستى مكة والمدينة وطابع شعرهما :-

وهنا نسجل ظاهرتين :

الأولى ، هذه الشاعرية القرشية التي مثلت مدرسة "مكة" مقابلة لمدرسة "المدينة" التي مثلها الأنصار.

الثانية ، أن هذا الشعر النقي صاحب النهضة الإسلامية أول ظهوره لم يكن شعراً دينياً بالمعنى الصحيح وإنشأ هو شعر عربي يسجل العواطف التي كان الجاهليون يسجلونها ، ومع ذلك ففيه شيء جديد هو أن مصدر هذه الخصومة التي وقعت بين قريش والنبي (ﷺ) ليست هي الأشياء التي كانت مصدر الخصومات الجاهلية ، هي خصومة أساسها الدين لا العصبية ولا المراعى والمياه ولا الرئاسة القبلية فمن الطبيعي أن يعتز المسلمون بدينهم وأن ينكر القرشيون عليهم ذلك ، وأن يقوم الشعر بتقبيد ذلك .

كذلك نجد في هذا الشعر ملاحظة طريفة هي أن هؤلاء الشعراء من أنصار النبي (ﷺ) الذين أشرنا إليهم كانوا معروفين بالشعر قبل الإسلام ولا سيما "حسان" هؤلاء الشعراء كانوا يهجون "قريشا" ويرددون عليهم صيحاتهم الشعرية . وكانوا يذهبون مذهبين متقابلين . كان "حسان بن ثابت" وكعب بن مالك " في الغالب يهجونهم على النحو الجاهلي ، فيؤذيهم "حسان" في أحسابهم وأنسابهم ،

ونجدتهم ، وكان هجاءه لذلك أشد عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا هان شعره عليهم ، إذ كان صورة جلية برئوا منها بالإسلام فلا عليهم حين ذكر بعد فوات وقتها ، وكان " عبد الله بن رواحه " يعيرهم بترك الدين والهدى بالخروج على الإسلام فلم يبالوه أولاً ما داموا جاهليين كافرين حتى إذا أسلموا خافوا شعره لأنه عار عليهم يرميهم بالتقصير في عقيدتهم الرسمية الأخرى وكلا النوعين كان أقرب في أسلوبه إلى النسق الجاهلي لم يحظ بنضج فني جديد .

كذلك يلاحظ أن شعر " قريش " لم يكن في الكثرة كما يروى أو يتوهم فيقول " ابن سلام " : " إنهم تكثرُوا من الشعر وأضافوه إلى شعرائهم " . كما يقول ، " إنه شعرٌ لن يمكن تقليده ، ويصعب تمييزه " ، لذلك نجد " ابن هشام " بعد رواية قصائد مطولة تُنسب إليه يقول : " أكثر علماء الشعر ينكر هذه النسبة " .

إن الإسلام بحكم طبيعته ونهضته كما نهض بالشعر واستدعاه موضوعاً فإنه أضعف شعر بعض الشعراء شكلاً ، وحسان بن ثابت . نفسه دليل ذلك ، ومن المشهورين المؤرخين أن " حسان " في الجاهلية أشعر منه في الإسلام : قال الأصمعي ، " الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير ضعف ولأن ، هذا " حسان " فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقطوا شعره " .

لماذا ضعف شعر " حسان " في الإسلام : -

قيل " لحسان " لأن شعرك إذ هرب في الإسلام يا أبا الحسام ، فقال للقاتل ، " يا ابن أخي ، إن الإسلام يحجر عن الكذب ، أو يمنع من الكذب ، والحق إن غالب شعر حسان كان في الإسلام دون مستواه الجاهلي ولعل أسباب ذلك : إضطراره إلى الارتجال كثيراً ليرد على خصوم الرسول (ﷺ) المهاجمين .

١- كبر سنه ، وضعف مواهبه الفنية ، لأن الحيوية المادية ذات أثر قوي في قوة الشعر وروعته .

- ٢- وقوف الدين بالفرن عند حد الفضيلة والدعوة إليها ، حتى لقد يستحيل الشعر وعظاً وإرشاداً ، وذلك بعد بالشعر عن طبيعته العاطفية الحرة .
- ٣- ثم ، وهذا أهم شيء أن " حسان " كان بين طبيعتين : جاهلية قديمة ناضجة ، وأخرى إسلامية حديثة ، والشعر ليس شيئاً يلقي في النفس القاءً ، وإنما ينبع منها بقوة الطبع ، وحصول الثقافة الخاصة .
- فكان " حسان " يغالب نفسه ، ويحملها على محمل نفس فني جديد ومعانٍ ، وموضوعات جديدة ، وأسلوب قديم لم يتغير ، فكان يسقط بين كرسيتين أي بين الاتجاهين .
- ومثله في ذلك الشاعر " النابغة الجعدي " وإن كان مغلباً في الهجاء ، وإنما ما لهذه النقطة فلاحظ أن الشاعر " لبيد بن ربيعة " قد ترك الشعر ، وانصرف عن العناية به في الإسلام ، فهذا مثل في تأثير القرآن في الشعر تأثيراً عكسياً مع أنه جزئي .
- ٤- إن جماعة من شعراء الأعراب أسلموا مسايرة للناس ، طوعاً أو كرهاً مثل " الحطيئة " الذي أسلم لأن من حوله أسلموا ، وربما كان ضعيف العقيدة
- فارقِد بعد وفاة الرسول (ﷺ) وإليه ينسب هذا الشعر ،**
- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| أطعنا رسول الله ما كان بيننا | فيا ل عيام الله ما لأبسى بكر |
| أبورثنا بكرأ إذا مات بعده | وتلك نغمز الله قاصصة الظهر |
| فهلأ رددتسم وفدتا بزمانه | وهلا خشيتم حسن راعية البكر |
- وكان " الحطيئة " يعشق الحياة الجاهلية ويحبها حباً جماً ، لما فيها من حرية غير خاضعة لسلطان سياسي ، ولا لتقاليد دينية ، وكان يحب ما في الجاهلية من صلات ، وهبات ، وشراب رافعاً عقيرته بالشعر ، مادحاً أو هاجياً أو متغذلاً .
- هذا الشاعر قد بقي شعره جاهلياً كما هو دون أن يتأثر بالإسلام في جملته ولم يتورط فيما تورط فيه غيره من الشعراء من الناحية الفنية حتى عد " الحطيئة " زعيم المخضمين ، وقائدهم لدى بعض النقاد .

فالواقع أن " الحُطَيْبَةَ " كان مخلصاً لفنّه أكثر من إخلاصه لدينّه ، لذلك بقي شعره مستويّاً لا تفاوت فيه ، شأنه في ذلك شأن الشاعر " القطامي " من الاسلاميين ، والشاعر " طرفة بن العبد البكري " و " زهير بن أبي سلمى المزني " من الجاهليين .

والنتيجة الطبيعية كما سبق ان مدة الجيل الأول لظهور الإسلام كانت من الناحية الأدبية امتداداً للعصر الجاهلي ، وبخاصة في الشعر . ونحن حين نقف لديها ، لا نقف عند عصر جديد واضح المعالم والأركان ، لذلك اختلف مؤرخوا الأدب أين يضعون هذه الحقبة من تاريخه : أهى إمتداد للعصر الجاهلي وتكملة له أم هى فترة اسلامية جديدة أم هى حقبة بين الإثنين وهى عصر المخضرمين ؟ رأي ابن سلام الجمحي في الحقبة الإسلامية : -

إن ابن سلام الجمحي ، في كتابه " طبقات الشعراء " فقد أضاف هذه الحقبة من الزمن الى العصر الجاهلي ، وأدخل شعراءها من طبقاته خاضعاً في ذلك لنشأتهم الأصلية ، ومذاهبهم الفنية ، وعد الاسلاميين الذين نشأوا في الإسلام وتأدبوا بأدابه ، أو تتقّفوا بثقافته ، وأدبه الكريم من القرآن الكريم والسنة وأتصلوا بأحداثه التاريخية والسياسية ، فبدأهم بالشعراء " جرير والفرزدق ، والأخطل " من الذين تعدّهم الآن من شعراء العصر الأموي .

رأي ابن رشيق القيرواني :

أما ابن رشيق القيرواني في كتابه " العمدة في محاسن الشعر ونقده " فقد عد هؤلاء الشعراء طبقة خاصة سماها " طبقة المخضرمين " والمخضرم هو الذي عاش شطراً من حياته في الجاهلية ، وشطراً آخر في الإسلام . ثم توسع في معنى الكلمة فأصبحت تطلق على كل من حضر عهدين متباينين ومختلفين حيث يقول : " طبقات القراء أربع " .

" جاهلي قديم ، ومخضرم ، واسلامي ، ومحدث " ثم صار المحدثون طبقت " طبقة أولى ، وطبقة ثانية " على التدرج ، وهكذا في الهبوط الى وقتنا هذا ، وهو

تقسيم تغلب عليه الناحية الزمنية ، وإن لم يخل مطلقاً من ملاحظات فنية تلائم هذه العصور التاريخية وكون أن هذه الحقبة الزمنية من حقب التاريخ الأدبي "عصراً إسلامياً" خالصاً من الناحية الأدبية فإنه غير ميسور إلا أن يلاحظ في تلك النواحي الأخرى "السياسية" ، أو أن تُعَد هذه مقدمة للعصر الإسلامي الذي تبدأ مظاهره في منتصف القرن الأول الهجري يعني بدأت مظاهره الحقبة مع ظهور الدولة الأموية ، والآن فإن العصر الإسلامي يبدأ بعد مضي جيل مُنْذُ البعثة ، أو بظهور الجيل الجديد الذي تربى في ظل الإسلام وتأدب بأدابه وعلى هذا فمن الممكن تقسيم الشعراء الذين ظهر الإسلام وهم شعراء إلى ثلاث طوائف ، - طائفتان متلاحقتان، ومتدافعتان، وهما طائفة الأنصار المدافعة عن الرسول (ﷺ) والناصر لدينه، وطائفة المكين : الهاجية لرسول الله (ﷺ) والمهجنة لدعوته وكان من آثارهما كثرة الشعر في مكة والمدينة .

أما الطائفة الثالثة : فهي التي بقيت تقول الشعر في إسلامها كما كانت تقولها في جاهليتها ومن هؤلاء الشعراء " أبو دعبيل الجمحي، وكعب بن زهير والنابعة الجعدي، ومعن بن أوس، وابن مقروم الضبي، وعبيدة بن الطيب وعمرو بن معد بن كريب، ومتمم بن نويرة، والعباس بن مرداس، والحطيئة " وغيرهم كثير مما يطلق عليهم الشعراء " المخضرمون " يعني الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وذلك من قولهم " ماء خضر " وذلك إذا تناهى في السعة إلى الكثرة ، لتناولهم العصريين . وأصل الخضرمة هم قوم وفدوا على رسول الله (ﷺ) وقد قاموا بتقطيع آذان إبلهم فلما وصلوا إلى مجلس رسول الله (ﷺ) قال هؤلاء المخضرمون، يعني أن قطع آذان إبلهم يحمل معنى سامياً عظيماً ، وهو أن هؤلاء قطعوا كل صلة لهم بالكفر والجاهلية واعتنقوا الإسلام ديناً فآمنوا بالله، وصدقوا برسول الله (ﷺ)، وهذه هي الفئة الثالثة : وهي لم تبتعد كثيراً في شعرها الإسلامي عن المنحى والطريق الذي كانت تنتهجه وتتحوه في شعرها الجاهلي بخلاف الفئتين السابقتين حيث إن البَيَّونَ شاسع والفارق بعيد بين شعريهما " في الجاهلية والإسلام " وذلك لتباين

الغرض اختلافه في العهدين ، واختلاف المعاني أيضا التي كان يقتضيتها هذا التباين ، واليك بعض الأمثلة لتوضيح ما ذكرناه آنفاً .

يقول الشاعر " ضرار بن الخطاب " في " واقعة بدر الكبرى " : -

عجبت لفخر الأوس والحسن ذاكر
وقهر بني النجار وإن كان معشر
فإن تلك قتلى غودرت من رجالنا
وتردي بنا الخرد العناجيج وسطكم
وسط بني النجار موقوف نكرها
فترك صرعى تعصب الطير حولهم
وتكبيهم من أهل يشرب منوة
وذلك أنا لا تزال موقوفنا
فإن تظفروا في نسوم بدر فإنا
وبالفخر الأخبار هم لولياؤنا
يعد أبو بكر وخزرة فيهم
ويذعي أبو حصص وعثمان منهم
لأنك نا من نتجب في ديارها
ولكن لؤهم من لؤي بن غالب
هم الطاعون الخيل في كل معرك
فأجابه كعب بن مالك . أخو بني سلمة فقال :

عجبت لأمر الله والله قادر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا
وقد حشدوا واستقروا من يلبهم
وملأت إلينا لا نحاول عزنا
وقينا رسول الله والأوس حولنا
على ما أراذ لنين لله فاهر
بنوا وسيل البغي بالناس جائر
من الناس حتى جمعهم متكائر
باجتماع كعب جميعا وعامر
له معقل منهم عزيز وناصر

وَجَمْعُ بَنِي النَّجَارِ تَحْتَ لَوَائِهِ
قَلَمًا لَقِينَاهُمْ وَكُلَّ مُجَاهِدٍ
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ
وَقَدْ عَرِيتَ بَيْضُ خِفَافِ كَأَنَّهَُا
بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعُهُمْ فَتَبَدُّدُوا
فَكَبَّ أَوْ جَهَلَ صَنِيعًا لَوَجْهِهِ
وَتَشِينَةُ وَالتَّيْمِي غَادِرُن فِي السَّوْعَى
فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا
تَلَطَّى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ حَمِيَّتُهَا
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبَلُوا
لَأْمُرِ لِرَأْدِ اللَّهِ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ
وَقَالَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبْعَرِيِّ" يَبْكِي قَتْلَى بَدْرٍ:

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ
تَرَكُوا نَبِيَّهَا خَلْفَهُمْ وَمَنْبِيَّهَا
وَالْحَارِثُ الْفَيَّاضُ يَنْزِقُ وَجْهَهُ
وَالْعَاصِمِيُّ يَنْ مَنبِهِ ذَا مِرَّةٍ
تَقْمِي بِهِ أَعْرَاقَهُ وَجُدُودَهُ
وَإِذَا بَكَى بِكَ فَاغُولُ شَجْوَةٍ
حَيَا إِلَهَ أَنَا الْوَلِيدُ وَرَهْطُهُ
فَأَجَابَهُ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ:

إِنَّكَ بَكَتَ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَسَّامَتْ
مَاذَا بَكَيتَ بِهِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
وَتَكَرَّرتَ مِنَّا مَا جَدَا ذَا هِمَّةٍ
أَعْنِي لَنَبِيٍّ أَخَا الْمَكَارِمِ وَاللَّهْدَى
فَلِمَثَلِهِ وَلِمَثَلِ مَا يَدْعُو لَهُ
بَدْمُ تَعَمَّلَ غُرُوبُهَا سَجَامُ
هَلَّا ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الْإِفْوَامِ
مَسْمُوحَ لَخَالِيقِ صَادِقِ الْإِفْذَامِ
وَلَيْزَ مَنْ يُؤَلِّي عَلَى الْإِقْسَامِ
كَانَ الْمُتَذَخَّرُ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَبْكِي حَمَزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ :

وَمَا يُغْنِيهِ الْيُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ	بَكَتْ عَيْنِي وَخَقَّ لَهَا بُكَاءُهَا
أَحْمَزَةُ ذَاكُمْ الرَّجُلُ الْفَقِيرُ	عَلَى اسْمِ الْإِلَهِ غَدَاةٌ قَالُوا
هَذَا وَقَدْ أَصِيبَ بِهِ الرَّمْلُ	أَصِيبُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا
وَلَنْتِ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ	لَنَا نَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هَدَّتْ
مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ	عَيْنُكَ مَنَامٌ رَتَكَ فِي جَنَانٍ
فَكُلْ فَمَالَكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ	أَلَا يَا هَلْشِمَ الْأَخْبَارُ صَنِيرًا
بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطَلِقُ إِذْ يَقُولُ	رَمْلُ اللَّهِ مُصَنِّطِيرٌ كَرِيمٌ
فَيَعُذُّ الْيَوْمَ دَائِلَةُ تَوَلُّ	أَلَا مَنْ مَيَّلَ عَنِّي لَوْيَا
وَقَالَتْهَا بِهَا يُشْفَى الْغُلُولُ	وَقِيلَ الْيَوْمَ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا
غَدَاةُ أَتَاكُمْ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ	تَسِيحُكُمْ ضَرْبًا بِقَلْبٍ بِذَرٍ
عَلَيْهِ الْعَلِيرُ خَلِيقَةُ تَجُولُ	غَدَاةُ تَوَى لِبُؤْسٍ جَهْلٍ صَرِيرًا
وَتَشِيْقَةُ غَضَّةِ الْمَتِيفِ الْمَنَقِيلُ	وَعَتِيقَةُ وَابْنُهُ خَرًا جَمِيعًا
وَقَبِي حَيَزُومِهِ لَنْدَنُ نَبِيلُ	وَمَتَرَكْنَا أَمْرًا مُجَلَّوَا
فِي سَنَائِفَا مِنْهَا قُلُولُ	وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَائِلُوهَا
فَأَنْتِ الْوَالِدَةُ الْعَبْرَى الْهَيُولُ	أَلَا يَا هِنْدُ فَبَاكِ لَا تَمَلِي
بَحْمَزَةَ إِنْ عَزَّكُمْ ذَلِيلُ	أَلَا يَا هِنْدُ لَا تُبْذِي شِمَاتَا

قال " أبو دعبل الجهمي " يمدح الرسول (ﷺ) :-

ذَهَبَ وَكُلُّ بَيْوتِهِ ضَخْمٌ	إِنَّ الْبَيْوتَ مَعَادِنَ فَتَجَارَهُ
إِنَّ النِّسَاءَ بِمَعْلَمِهِ عَقْمٌ	عَقِمَ النِّسَاءُ فَمَا يَلِدْنَ شِدَاهُ
سَيَّانُ مِنْهُ الْوَفْرُ وَالْعُدْمُ	مُتَهَلِّلٌ بِسَلْعَمٍ بِلا مَتَاعِدُ
ضَمَمْنَا وَلَيْسَ بِجِسْمِهِ سَقْمٌ	نَزَرَ الْكَلَامُ مِنَ الْحَيَاءِ تَخَالَهُ

وقال " كعب بن زهير " :-

مَنْعَمٌ لِرَّحْمَا لَمْ يَفُذْ مَكْبُولُ	بَانَتْ سَعَادُ قَتْلَيْهِ الْيَوْمَ مَكْبُولُ
---	--

وَمَا مُسْعَاةَ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
هَيْقَاءَ مَقْبَلَةَ عَجَزَاءَ مَذْبُورَةٍ
تَجَلُّوْا عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
شَجَتْ بِذِي شَيْمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْيِيَةٍ
إلى أن قال :

تسعى الوشاة بجنيئها وقولهم
وقال كل خليل كنت أمله
فقلت خللوا سبيلي لا آبا لكم
كل ابن أثنى وإن طالت سلامة
أثبتت أن رسول الله أوعدي
مهلاً ذلك الذي أعطاك نافلة ال
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم بأمر لو يقوم به
لظلل يرعذ إلا أن يكون له
حتى وضعت يميني لا أنزع
لذاك أهيب عندي إذ أكلمة
إلى أن قال :

إن الرسول لسيف يستضاء به
في عصبة من قریش قال قائلهم
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
شم العرائن أبطال لبوسهم
بيض سوابغ قد شكت لها خلق
يمشون مشي للجمال الزهر يعصمهم
لا يفرحون إذا نالت رماحهم

إِنَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْشُورُ
لَا يُشْتَكِي قَصْرَ مِنْهَا وَلَا طُولُ
كَأَنَّهُ مَهْلُ بِالرَّوْحِ مَعْلُورُ
صَافٍ بِأَنْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُورُ

إنك يا بن أبي مسلم لمقتول
لا ألهي لك إنسي عنك مشغول
فكل ما قدر الرحمن مفعول
يوماً على آل حدياء محمول
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعظ وتفصيل
أذنب وإن كثرت في الأقاليل
أرى وأسمع ما لو يسمع القيل
من الرسول بإذن الله تنويل
في كف ذي نقات قيله قليل
وقيل إنك منسوب ومسؤول

مهتد من سيوف الله مملول
بيطن مكة لما أسلموا زولوا
عند اللقاء ولا ميل معازيل
من نسج داود في الهيجا سرايل
كأنه خلق القفعاء مجسود
ضرب إذا عرد السود التبايل
قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يَبْقُ الطَّعَنُ إِلَّا فِي نَحْوِهِمْ وما لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ
وقال "الناطقة الجعدي" من قصيدة يمدح فيها الرسول (ﷺ) :

خَلِيلِي عَوْجاً سَاعَةً، وَتَهَجُّرَا وَلَوْ مَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ، أَوْ ذَرَا
وَلَا تُجْزَعَا إِنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ، فَخَفَا لِرَوَاعَاتِ الْحَوَادِثِ، أَوْ قَرَا
وَلِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ، فَلَا تُجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللَّهُ، وَأَصْبِرَا
لَمْ تَرَيَا أَنَّ الْمَلَامَةَ تَفْعُهَا قَلِيلٌ، إِذَا مَا الشَّيْءُ وَتَى وَالذَّبْرَا
تَهِيحُ الْبُكَاءُ وَالنَّدَامَةُ ثُمَّ لَا تُغَيِّرُ شَيْئاً، غَيْرَ مَا كَانَ قُدْرَا
لَقِيتَ رَسُولَ اللَّهِ، إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى، وَيَقُولُ كِتَاباً كَالْمَجْرَةِ نَبْرَا
خَلِيلِي قَدْ لَاقَيْتَ مَا لَمْ تَلَاهَا، وَسَيَّرْتُ فِي الْأَحْيَاءِ مَا لَمْ تُسَيِّرَا
تَذَكَّرْتُ، وَالذِّكْرَى تَهِيحُ لَذِي الْهَوَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمُخْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
دَلَامِي عِنْدَ الْمُنْذِرِ بَيْنَ مُحَرِّقٍ، أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مَقْفَرَا
كُهُولاً وَشُبَّاناً، كَانَ وَجْهُهُمْ ذَنَابِيرُ مِمَّا شَيْفَ فِي أَرْضٍ قَيْصَرَا
وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُ بَيْنَ بَابٍ وَدَلَرٍ، يَنْجُرَانِ، حَتَّى خَفْتُ أَنْ أَتَصَّصَرَا
لَدَى مَلِكٍ مِنْ آلِ جَفَنَةَ، خَالَهُ وَجَدَّاهُ مِنْ آلِ امْرِئِ الْقَيْسِ أَزْهَرَا
يُسَدِّيرُ عَلَيْنَا كَأَمْسَةً وَشِبْوَاءَ مَنَاصِفُهُ وَالْخَضِرَ مَيَّ الْمُجَبَّرَا

إلى أن قال :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُودًا وَمُسَوِّدًا، وَإِنَّا لَنَرْجُو، فَوْقَ ذَلِكَ، مَظْهَرَا
وَكُلُّ مَعَدٍّ قَدْ أَحَلَّتْ سُيُوفُنَا جَوَائِبَ بَخْرٍ، ذِي غَوَارِبَ، أَخْضَرَا
لَعَنَرِي لَقَدْ أَنْذَرْتُ أَرْذَا أُنَاقَهَا، لَتَنْتَظِرَ فِي أَحْلَامِهَا وَتَتَكَبَّرَا
وَأَعْرَضْتُ عَنْهَا حَقْبَةً، وَتَرَكْتُهَا، لِأَبْلَغِ عَذْرَاءَ عِنْدَ رَبِّي، فَأَعْذَرَا
وَمَا قُلْتُ حَتَّى نَالَ شَحْمُ عَشِيرَتِي نَفِيلَ بْنِ عَمْرٍو وَالْوَحِيدَ وَجَعْفَرَا
وَحَيَّ ابْنِي بَكْرٍ، وَلَا حَيَّ مِثْلَهُمْ، إِذَا بَلَغَ الْأَمْرُ الْعَمَّاسَ الْمُدْمَرَا

فقال النبي (ﷺ) : فأين المظهرياً أبا ليلى ؟ فقال : الجنة . قال النبي (ﷺ) :

إن شاء الله .

ومن احكم شعر "معن بن أوس" وأعفه قوله :-

لعمرك ما أهويت كفى لريبة
وأعلم أني لم تصبني مصيبة
ولا قاتني سمعي ولا بصري لها
ولا مؤثراً نفسي على ذي قرابة
ولا خملتني نحو فاجشة رجلي
من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي
ولا دلتني رأيي عليها ولا عقلي
وأثر ضيقي ما أقام، على أهلي

وقال "عبدة بن الطبيب" يرثى "قيس بن عاصم المنقري" .

عليك سلام الله قيس بن عاصم
تحيته من غارتك غرض الردى
فما كان قيس هلكه هلك واحد
ورحمته ما شاء أن يرحمها
إذا زار عن شخط بلادك سلماً
ولكنه بئسان قوم تهماً

وقال "متمم بن نويرة" في رثاء أخيه "مالك" وهي طويلة :

جميل المحيا ضاحك عند ضيقه
وقور إذا القوم الكرام تناولوا
وكنيت إلى نفسي أشد حلاوة
وكل فتى في الناس بعد ابن أمه
وبعض الرجال نخلة لا جنس لها
أغر جميع الرأي مشتمل الرحل
فحلت حباهم واستطبروا من الجهل
من الماء بالمادي من صل النحل
كساقطة إحدى يديه من الخبل
ولا ظل إلا أن تعد من النحل

وقال "العباس بن مرداس" :

ترى الرجل النحيف فتزريه
وتعجبك الطير فتتلييه
فما عظم الرجال لهم بفخر
بغات الطير أكثرها فراخاً
ضعاف الطير أطولها جسوماً
لقد عظم البعير بعير لب
يصرفه الصبي بكل وجهه
وفي ثوابه أشد مزير
فيخلف ظنك الرجل الطير
ولكن فخرهم كرم وخير
وأم الصفر مفلات نزور
ولم تطل البزاة ولا الصفور
فلم يستغن بالعظم البعير
ويخسئ على الخسف الجير

دراسات في الأدب • في عصر صدر الإسلام

وَتَضُنُّرِيَّةَ الْوَلِيدَةِ بِالْهَرَوِي وَفَلَا غَيْرَ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرَ
فَلَيْنَ أَكْ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلًا فَلَيْنَ فِي خِيَارِكُمْ كَثِيرًا

وقال " الحطيئة " في آل شماس . قوم بغيض :

أَلَا طَرَقْتَنَا بَعْدَ مَا هَجَمُوا هَجْدُ
وَأِنْ التَّيَّ نَكَبْتَهَا عَنْ مَعَالِيهِ
أَنْتَ أَلْ شَمَّاسُ بِنِ لَآيٍ وَإِنَّمَا
فَإِنْ الشَّقِيُّ مِنْ تُعَادِي صَدُورُهُمْ
يُسَوِّسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنْتَاهَا
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنُوا أَحْسَنُوا لِلْبَنَى
وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَكَشِيفُ السُّجَى
وَقَدْ جَزَنَ غَوْرًا وَاسْتَبَانَ لَنَا نَجْدُ
عَلَيَّ غَضَابٍ أَنْ صَدَدْتُ كَمَا صَدُّوا
أَتَاهُمْ بِهَا الْأَحْلَامُ وَالْحَصْبُ الْعِدُ
وَذُو الْجَدِّ مَنْ لَاتُوا إِلَيْهِ وَمَنْ وَثُوا
فَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَقِيقَةُ وَالْجِدُ
مِنْ اللُّومِ أَوْ سَدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْقَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ أَعْمُوا لَا كَثُرُوا وَلَا كَثُرُوا
مِنْ الدَّهْرِ رُئُوا فَضَّلَ أَحْلَامَكُمْ رُئُوا
يَتَنَى لَمْ أَبَاؤُهُمْ وَيَتَنَى الْجَدُّ

هذا وقد تقدم أن ذكرنا أن مسلك الرسول (ﷺ) وخلفائه من الشعركان

سليماً، وذكرنا تشجيعه لـ " حسان بن ثابت " ومكافأته " كعب بن زهير " ورغبته
في استماع الشعر مما كان له أثر في نهضة الشعر.

فلقد حكى " ابن هشام " أن رسول الله (ﷺ) لما قال للانصار : ما يمنح القوم

الذين نصرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسيا فهم أن ينصروه بالسنتهم .

فقال حسان : أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرني به مقول بين

بصري وصنعاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف تهجوهم وأنا منهم

وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي " فقال : يا رسول الله لأسلنك منهم كما

تسل الشعرة من العجين فقال : " أنت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك .

فيحدثك حيث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم أهجهم وجبريل معك ، فأخذ " حسان " يهجوهم ، وكثيراً ما كان يقول له (ؓ) : شن الغارة على بني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام .

ولقد استمع رسول الله (ﷺ) " لكعب بن زهير " لاميته المشهورة (بانئت سعاد) فعفا عنه وأثابه بريدة اشتراها منه " معاوية " بعد وفاته بثلاثين ألف درهم وتداولها من بعده الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد ، بل لقد تأثر رسول الله

(ﷺ) حينما أنشدته " قتيلة بنت الحارث " أخت النضر وقد قتل بعد وقعة بدر ،

يا راكياً إن الأئيل مظنة	من صنيح خامسة وأنت مؤثق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
مبى إليك وعبرة ممقوخة	جانت بوكيفها وأخرى تخفق
هل يسمعي النضر إن ناديت	أم كيف يسمع ميت لنا ينطق
أحمد يا خير صنم كريم	في قومها وللخل فخل مغرق
ما كان ضورك لو متت وزيتا	من الفنى وهو المغيظ المخلق
أو كنت قبل قديلة قلىنفن	بأعز ما يغلو به ما ينطق
فلننصر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عشق يعتق
ظلمت مشيؤف بكى إليه تنوشة	لله أرخام هناك تشقق
صبراً يناد إلى الميتة متعباً	رسف المقيد وهو غان مؤثق

قال ابن هشام : فيقال والله أعلم إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال لو بلغني هذا قبل قتله لمكنت عليه .

ولقد سار خلفاؤه (ؓ) من بعده إزاء الشعر كما ساروما منهم إلا من تمثل بالشعر أو قاله أو حض على روايته وحرض على حفظه ، وكانت السيدة *

عائشة عليها السلام، "كثيرة الرواية للشعر حتى قيل أنها مالت حفظ شعر" ليبيد "وكانت تقول :

"رووا أولادكم الشعر تعذب المستهمل، وكانوا يحضون على حفظ ما هو حسن مفيد، ويعاقبون على ما هو شائن ضار. فضربوا على أيدي الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين بالهجو المقذع والتشبيب الفاحش ونعت الخمر، وما إلى ذلك فهذا "عمر" حبس "الحطيئة" لإقذاعه في هجاء "الزيرقان بن بدر" ولم يطلق سراحه على كثرة استعطافه، إلا قصيدة رن لها "عمر" وهي :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ	خمر الخواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة	فاغفر، عليك من الله يا عمر
لنت الإمام الذي من بعد صاحبه	ألقيت إليك مقاليد النهى البشر
لم تؤثروك بها إذ قدّموك لها	لكن لأنفسهم كانت بك الخير
فامتن على صبيته بالرمل مسكتهم بين	الأباطح تغشاهم بها القبر
أهلي فداؤك، كم يبيي ويبييهم	من عرض ذوبة يعمى بها الخبر

وهذا "عثمان" عليه السلام حبس "ضابي" بن الحرث بن أوطاة، من بني غالب بن حنظلة، بن البراجم، وكان استعار كلباً من بعض بني جرول بن نهشل، فطال مكثه عنده، فطلبوه فامتنع عليهم، فعرضوا له فأخذوه منه، فغضب ورمى أحدهم بالكلب واسم الكلب قرحان فقال:

تجتم دوني وقد فرحان شفة	تظل بها الوجناء وهي خسير
فارتفعت كلباً فراحوا كأنما	حياهم بشاح الهرمزان أمير
وقلتهم ما لو رمت متالفاً	به وهو مغبر لكاذ يطير
فيا راكباً إما عرضت قبل غن	ثمانة عسى والأمور تودور
فأمكم لا تتركوها وكلبكم	فإن غفوق الولدان كسير

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

فإنك كُتِبَ قد ضُرِيتَ بما تَرَى سَمِعَ بما فَوْقَ الْفَرَاشِ خَبِيرُ

إذا عَشْتُ منْ أَجْرِ اللَّيْلِ دُخْنُهُ نَبِيتُ لَهَا فَوْقَ الْفَرَاشِ هَرِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان بن عفان، فحبسه، وقيل أنه مات في السجن .

وهكذا نجد أن الخلفاء قد حرصوا على حفظ الشعر وروايته لا للتلهي به

أو تأديب النفس فحسب ، بل لأنهم وجدوا أن تعلمه ضروري لفهم القرآن ، فقد قال

" ابن عباس " رضي الله عنه ، " اذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار

العرب " .

تأثير الإسلام في الشعر

لقد جاء الإسلام بالجِد الذي لم يعرفه العرب ، فشغلوا أوقاتهم في تحصيل الدين، ونشر تعاليمه، وبطال كثير من عادات الجاهلية وأباطيلها وحرم عليهم الكذب، وإشاعة الفاحشة في الناس، وقذف المحصنات كما قضى على العصبية التي بددت شملهم، وفرقت جمعهم، فكان لهذا أثر في تعطيل آلة الشعر، وتغيير نغمتها، وفتور كثير من الاعراض القديمة، كتأريث العداوات، وذكر العورات، والوقوع في الاعراض والفخر الكاذب والهجاء المقتدع .

كما كان للقرآن - وهو في الذروة - من الفصاحة والبلاغة أثر في انهيار كثير من الشعراء حتى بلغ ببعضهم أن انقطع عن قول الشعر "كليب" وهو فحل من فحول الجاهلية وروى أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِيْ أَجْلِيْ حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ مِرْبَالاً
ومن حديث "ليب" أن "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه أرسل إلى عاملة على "البصرة" أن أرسل "ليب" والأغلب "ما أحدثنا في الإسلام ؟

فقال الأغلب .

أرجزاً تريـد لم قصـيداً لقد سألت هـنـا مـوجوداً
وقال لبـد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر في عطائه ، فبلغ به ألفين، فلما ولي " معاوية " قال : أو تدعني قليلاً ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذ العطاءين جميعاً ؟

وأما من لم ينقطع عن قول الشعر ، فقد تركت فيه مفاجأة القرآن أثراً من الضعف ، كما تقدم الكلام في " حسان " .

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

ونستطيع بعد ذلك أن ندلي ببعض أمثلة كان الشعراء فيها متأثرين بأسلوب القرآن
سالكين نهجهم ، فالقرآن يقول ،

﴿وَلَوْ أَنَّا أَرْسَلْنَاكُمْ قَدَمًا مِّنْ هُنَىٰ أَوْ فِي سُلَكٍ مَّيْمَنٍ ۖ﴾ (سبا: ٢٤).

ويقول : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۖ﴾ (التوبة: ١٢٨)

أخذ الأول " حسان " فقال في الرد على " أبي سفيان " حين هجا النبي (ﷺ) ،

هَجَوْتُ مُحْتَدًا وَأَجْبَسْتُ عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَمْ تَنْتَ لَهُ بِكَفَاءٍ	فَشَرَكْنَا لِحَيْرِكُمْ بِالْفِدَاءِ
هَجَوْتُ مَبَارَكًا بَرًّا خَفِيًّا	أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَتُهُ لِلْوَفَاءِ
أَمَّنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ	وَيَمْلِكُهُ وَيَهْصِرُهُ مَنْوَاءُ ؟

وأخذ الثاني أيضا في رثاء رسول الله (ﷺ) فقال ،

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهَدَى	حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَفِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَمَّا يَنْتَقِي جَنَاحُهُ	إِلَى كَتِفٍ يَحْتَوِي عَلَيْهِمْ وَيَمْتَدُّ
فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ النَّوْرِ إِذْ غَدَا	إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدٌ

والقرآن يقول : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تُسَوَّى السُّلُوكُ وَالْقُرُورُ ۚ﴾ (الرمع: ١٦)

و يقول : ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ۚ﴾ (الإسراء: ٢٤)

أخذ الأول " حسان " فقال ،

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٌ تَسْفَهُوا	عَمَائَتُهُمْ هَذَابٌ بِهَا كُلُّ مُهْتَدٍ
لَقَدْ تَرَلَّسْتُ مِنْهُ إِلَى أَهْلِ بَشْرٍ	رِكَابٌ هَذَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِالْبَشْرِ

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

وأخذ الثاني "معن بن أوس" فقال ،

فما زلتُ في ليني له وتعطفني عليه كما تحنو على الولد الأم
وحفضني له مني الجناح تألفاً لنذنيته مني القراية والرحم
وصبري على أشياء منه تربيني وكظمي عن غيظي وقد ينفع الكظم
والقرآن يقول : يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

[الحج: ٦١]

أخذه "الناطقة الجعدي" فقال ،

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها ففقدته ظلمنا
المولج لليل في النهار وفي اليل نيل نهاراً يفرج الظلمنا
الخالق الرافع السماء على ال أرض ولم يكن تحتها دعماً
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، ولا سيما في أشعار "حسان" وعبد الله بن

رواحه وأميرة بن أبي الصلت ، وغيرهم ممن كانت له نزعة إلى الدين :

قال "عبد الله بن رواحة" ،

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء حق وفوق العرش رب العالمينا
وتحملنه ملائكة غلاظ ملائكة الإله مومنيننا

كما نجد أن الشعر في صدر الإسلام قد بدأ في روحه ومعانيه مملوءاً

بالتقوى والورع ، وتكرر البعث والجنة والنار .

يقول "بجير" أخو "كعب بن زهير" ،

من مبلغ كعباً فهل لك في التي من مبلغ كعباً فهل لك في التي
إلى الله (يا عزى) ولما آلت (أخذة) إلى الله (يا عزى) ولما آلت (أخذة)
لدى يوم لنا ننجو ونلبيس بمقابس لدى يوم لنا ننجو ونلبيس بمقابس
فدين زهير وهو لنا شيء دينه فدين زهير وهو لنا شيء دينه

ويقول أبو ذؤيب المذلي ،

أبَا عَثْبِدَ رَفَعَ الْكِتَابُ واقترب الموعد والحسابُ
ويقول " كعب بن زهير " ،

لَوْ كُنْتُ أُعْجِبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجِبُنِي سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسْعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا فَالْنَفْسُ وَاجِدَةٌ وَالْهَمُّ مُتَتَبِرُ
وَالْمَرْءُ مَا غَاشَ مِنْزُودَ لَهُ أَمَلٌ لَأَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْبَلَدُ

أين هذا التصوير البارع لحقيقة القضاء والقدر من قول والده " زهير بن أبي سلمى وهو من أحكم شعراء الجاهلية ، إذ يقول ،

سَمِعْتُ تَكْلِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَيْلَ لَكَ بِسَامِ
رَأَيْتُ الْمَذَايَا خِيطَ عَشْوَاءٍ مَنْ تَصِيبْ تَمَتَّهَ وَمَنْ تَخْطِئْ يَعْثُرُ فِيهِ هَرَمِ
حتى الشعراء البعيدة نفوسهم عن تمذيب الذين ظلموا في شعرهم ، يقول
" الحطيئة " ،

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَتَقَى مَزِيدُ
وَمَا لَا بَدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

وقال الحطيئة ، وهو أحكم بيت بالإجماع ،

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَحْزَنُ جَوْلَانِي لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وبعد، فقد يبدو للنظر السطحي أن يسرع تأثير القرآن الكريم في الشعر فيبدو الشعر كله رقيقاً في أساليبه، إسلامياً في روحه ومعانيه مع أن قسماً كبيراً من شعراء البداية الذين أسلموا مسابقة للناس طوعاً أو كرهاً ظل شعرهم في الإسلام كما هو في الجاهلية فما سر تحقق سرعة التأثير ؟

لذلك أسباب :

١- منها ما أسلفنا أن الطفرة محال، وأن تجديد الشعر يستلزم دراسة القرآن وتعاليم الدين وتشريها، وطبع الملكات ، النفسية واللسانية بطابعها ، وذلك يحتاج الى وقت طويل، وهيهات أن يحدث ذلك في شهور أو سنوات، لذلك سنلاحظ أن من المخضرمين من استمرت ملكاته جاهلية " كالحطيئة " ومنهم من ترك الشعر " كلبيد " ومنهم من اضطرب بين الملكتين حتى ضعف شعره " كحسان "

٢- ومنها أن تأثير القرآن الكريم المنتظر كان يقوم وقفاً على أولئك الذين اتصلوا بالرسول (ﷺ) ودرسوا القرآن الكريم وتفهموه وهم . أولاً : قليل بالنسبة الى أولئك العرب الذين أسلمت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، أو هؤلاء البدو الذين تشبسوا بحياتهم ولزموا كثيراً من عاداتهم التي حاربها الرسول (ﷺ) وتبعه في ذلك " عمر بن الخطاب " .

ثانياً ، على هؤلاء الأقربين الى الرسول (ﷺ) كما أسلفنا لم تسرع إلى نفوسهم وألسنتهم ملكات القرآن الكريم الأدبية فلم يظهر شعرهم الديني إلا على السنة الجيل الجديد، وأما " حسان " فمع أنه دعا الى الدين الجديد وتعلق به لكن ملكته الدينية لم تكن في قوة الطبع الشعري القديم ، فكان هناك فرق بين ملكته القديمة والحديثة .

٣- ومنها أن هؤلاء الذين آمنوا بالقرآن مخلصين قد تلقوه على أنه نص قدسي معجز لا يمكن معارضته ، فكان القرآن مثلاً أعلى لا يطمع أحد في تقليده ، فاستغنوا به عن قول الشعر كما حدث " للبيد " .

تطور النثر في عصر البعثة

تعريف النثر :

قبل الكلام في هذا الموضوع يجب أن نعرف كلمة نثر ما هي ؟ وماذا يراد منها في هذا البحث ؟ أمثاماً المراد هنا اللغوي، أي كل كلام منثور لم يتقيد بوزن ولا قافية، مهما يكن لفظه صحيحاً جميلاً أو لا، ومهما يكن معناه قيماً أو لا ؟
أم معناه الاصطلاحي هو المقصود منه حين يطبق في باب الأدب، ويراد به الكلام المنثور المتميز بميزتين :

المعنى القديم ، واللفظ الصحيح الجميل .

وإذا كان المعنى الثاني هو المراد فهل نقف به عند ذلك النوع الأدبي أو الفني الذي يشبه الشعر في أن كلا منهما يرمى إلى التأثير ويقصد إلى إثارة الشعور، أو يتناول أيضاً ذلك النثر العلمي ، الذي يرمى إلى التثقيف والتعليم ، كالفلسفة والدين والتاريخ والنقد، وإن لم يَحُلْ من عاطفة وإحساس .
أنواعه :

ومعنى ذلك أن عندنا أنواعاً من النثر ، ثلاثة هي :

١- المحادثة

٢- النثر الفني

٣- النثر العلمي

(١) المحادثة :-

قد جرى الباحثون على إخراج المحادثة من باب الأدب لأنها كلام عادي مكرور لا يستأهل التسجيل والدروس، ولفقده جمال العبارة وصحتها أحياناً، ثم قيمة المعنى، ولكننا بإزاء العصر الإسلامي المسبوق بالعصر الجاهلي يجب أن نقف

قليلاً لنلاحظ أن هذه المحادثة، فيما يظهر - كانت صحيحة العبارة خالية من الخطأ واللحن . إذ هي الصورة اللغوية الأولى التي كانت مقياس النثر، وعنها وضعت قواعد النحو، ونحن لا اعتراض لنا من الناحية اللغوية الصحيحة، ولكننا نسأل بعد ذلك : ألم تكن هذه اللغة حواراً أحياناً، وحكمه وأمثالا وعبارات متميزة في معانيها فوق صحة الفاظها أحياناً؟

وإذا فما يمنع أن يكون هذا الحوار أو الحديث أدباً ؟

الحق أنه لا فرق بين هذا الحوار الذي كان وبين الحوار الذي تهبأ الآن في لغة صحيحة، ويدور حول مسائل اجتماعية أو وصفية أو غير ذلك، وغاية ما نريد إثباته أن المحادثة الإسلامية (وقبلها المحادثة الجاهلية) كانت أقرب الى اللغة الأدبية من محادثتنا الآن فقد كان للعرب مجالس سمر، وقصص وحوار ومشاورات تعقد في الليل وسط الحى أو بين الأحياء يتناول فيها القوم شئون الحياة، وأخبار الماضى والحاضر يغنون بها أبناءهم، ويرفهنون بها أنفسهم، وكثيراً ما يشترك فيها النساء، فكانت أشبه شيء بالمجالس أو المنتديات الأدبية ولو قد حققوا لنا التاريخ صوراً منها إفادتنا كثيراً في تصوير الحياة الاجتماعية لهذا الشعب العتيق. على أن محادثات الرسول (ﷺ) وأصحابه (وقد بقى منها شيء كثير) تعرض علينا صورة لهذه المحادثة .

١- في قريش ،

٢- وفي آخر العصر الجاهلي ،

وهي صورة تقريبية على أية حال فقد ظهر الإسلام والرسول (ﷺ) يتحدث لغة قرشية فصيح، وهي لغته قبل القرآن وهي كذلك لغة الحديث الجاهلية

في ما يافتها النحوية، بقيت كذلك من ناحية الصياغة العامة لم تتغير، فكانت أحاديث الرسول (ﷺ) صورةً للغة التخاطب الجاهلية ولا يطعن في ذلك ما قد يكون في رواية الأحاديث من تغيير لأن التغيير لم يعم الأحاديث من جهة ولم يتناول عبارات كل حديث من جهة أخرى على أن هناك عبارات تروى على أنها من ابتكار الرسول (ﷺ) رويت بنصها مع جملة صالحة من الأحاديث الصحيحة، تصور لغة للحديث لا تختلف عن لغة القرآن الكريم في الصياغة النحوية.

وكذلك القول في لغات "أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسفيان ابن أمية" وغيرهم من آل الرسول (ﷺ) وقريش ممن كانوا يتناقشونه حول الإسلام.

ويحسن أن نلاحظ أنه في صدر الإسلام لم يكن هناك فرق في هذه الصياغة بين الحديث والخطابة والكتابة فهي كلها لغة طليعية لا صنعة فيها ولا فن.

معنى ذلك أن لغة التخاطب في صدر الإسلام هي لغة التخاطب في الجاهلية وإن تغيرت معانيها وموضوعاتها، نستطيع إذا أن نُقرب إلى الأذهان لغة التخاطب والكتابة والقصص كما قلنا، وكم يلي التفصيل، فهي قوية الأداء سليمة البناء، صحيحة الإعراب حتى على السنة الموالى الطويلي المكتب بينهم أما حديثوا العهد في الإقامة منهم فقد كانوا يرتضون نكتهم من لغتهم الأولى لحبشية بلال، وفارسية سلمان، ويومية صهيب.

وعلى الجملة فكانت المحادثة العادية خالية من اللحن وإن بدا من بعضهم بعض اللحن فقد كان ينظر إليه نظرة استهجان له واستعظام لما صدر منه فقد روى أن رجلاً لحن بحضرة النبي (ﷺ) فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل". ولذلك قيل:

إن العربي الفصيح لا يخطئ لأن الإعراب جزء من لهجته لا ينقسم عنها فهي هذه الفترة سليمة من الخطأ إلا إذا اختلطت الأمة السليمة فتسمى حينئذ لغة عامة أو شعبية لا تعد في نظر النقاد أدبا لسبيين :
الأول ، معنوى وهو تفاهة المعاني أو تكرارها وعدم نباهتها وعدم امتيازها فلا تستحق العناية والتسجيل .

الثاني : لفظي وهو تعرضها للأخطاء وتجاوز أصول النحو والبيان وليس لدينا نصوص حاسمة لهذه اللغة العامة إذا لم تدون ولم يحكها الرواة بالدقة في عصر التدوين بعد ذلك فذهبت صورتها الدقيقة في جنبات الصحراء .

(٢) النثر الفني

قبل أن نتقدم الى إيضاح النثر الفني في هذه الفترة ينبغي أن نشير في إيجاز شديد الى نشأة الحياة الفنية عامة والفرق بينهما وبين الحياة العلمية في ذلك، وأول ذلك أن الحياة الفنية أسبق الى الوجود من الحياة العلمية إذ كانت الأولى تجارب ابتدائية وأخذت عن الطبيعة والحياة بشكل يشبه الاستقرار والتقليد ولكن الثانية تدوين لثمار هذه التجارب وإخضاعها لقوانين عامة تجمع شتاتها ، وتميز بين أنواعها وتردها إلى عللها العامة ومصادرها الأولى، فقد عرف الإنسان الكوخ والدار قبل معرفته العمارة وهندستها، ووجدت الجزيرة قبل تعريفها الجغرافي . ونظم الشعراء قبل تدوين العروض، وأعجب الناس بألوان الطيف قبل تفسيره . وهكذا نجد الفن يسبق ثم يكون أساساً لتكوين العلوم لذلك ترى أن الحياة الفنية يمكن أن تزدهر في عصر البداوة ما دامت تعتقد في الغالب على الشعور فيكبر الشعر والخطابة إلى الوجود بعد تكوين الجماعات ولكن الحياة العلمية لا

توجد إلا في البيئات المستقرة والمدن القائمة لتيسر للعقل الهدوء والتفكير والموازنة والاستنباط والتجارب من التدوين، ومن هنا نرى التاريخ الإسلامي العام أن النثر العلمي تأخر في الوجود وكذلك النثر الفني الذي يعتمد على التجود والصنعة وحسن التفكير ودقة التعليل: (الكتابة الانشائية).

الحياة الفنية سابقة على الحياة العلمية وكذلك الفنون كلها كالرسم والغناء والرقص والتمثيل توجد في عصور سابقة قبل أن تتحضر الشعوب وتستقر لإقامة الحياة العلمية المنظمة وسواء أكانت غاية الفنون الجميلة هي التعبير أم السرور أم الفائدة فإنها متشابهة الغايات وإن اختلفت في وسائل الأداء فهي في الشعر أو الأدب كلام أول لغة كلامية وهي في الرسم ألوان أول لغة لونية وهي في التصوير أحجار وفي الغناء أنغام وفي الرقص أجسام، وهكذا كانت لغة الفن مختلفة وغايتها واحدة ومنها اللغة الأدبية التي كانت وسيلة الحياة الأدبية.

والنثر الفني الأدبي يتناول الخطبة والرسالة والقصة والحكمة والمثل ونحوها مما هو نصوص أدبية يراعى منها ناحية التأثير وإثارة العواطف ولسنا نشك في أن شيئاً من ذلك قد وجد ولا سيما الخطابة والكتابة والمعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية، لأن الحياة الاجتماعية في ذلك العهد كانت تستدعي الخصومات والدعوة الدينية فكان لابد من ألانة تصور هذه الحوادث.

(١) الخطابة :-

ولقد كانت الخطابة في الجاهلية أداة اجتماعية هامة للحرب والصلح والوفادة والزواج والمفاخرة والمنافرة والوعظ، وجاء الإسلام فازدادت نشاطاً وأخذت تستميل كذلك في موضوعاتها ومعانيها وألفاظها، نشطت استجابة لهذه

الدعوة الجديدة وتغيرت فصارت دعوة دينية وسياسية وحزبية واجتماعية وظهر أثر القرآن فيها سريعاً .

١- لغريها من فنه .

٢- ولاعتمادها عليه مباشرة .

٣- ولاقتباسها من آية .

٤- ولأنها فن سريع شقوى خصوصاً لدى العرب .

ومن تتبع نصوصها ، وأطلع على شواهدا ، وأمعن النظر في شأنيها تبين له مائة أسلوبها ، وعذوبة ألفاظها ، وشرف معانيها ، وقوة تأثيرها ، واقتباسها من القرآن ، وانتهاجها نهجه في الارشاد والاقناع ثم زادها عظمة ورقياً إلى أن جاء القرآن نثراً لا شعراً وإن بلغ ينثره من التأثير في النفوس والوصول إلى مواطن الحجة والاقناع ما لم يبلغه الشعر، من قبل، وإن جاء رسول الله (ﷺ) غير شاعر يتصرف بخطابته تصرفاً تناول شتى الأمور من دعوة إلى الدين وبيان أحكامه ، ورسم سياسة الدولة الدينية والاجتماعية والتشريعية، ومن تحميس الجند وحذهم على القتال والدفاع، وقمع الفتن، ورد البدع والحض على لزوم الطاعة وغير ذلك من جلائل الأمور التي يقصد قصدها، ويوجه نحوها في فصاحة لسان، وحسن بيان ونصاعة حجة، ودراية منطق، وقوة الهام، وقُدرة على الجدل، وتمكّن من وسائل الإقناع، ومعرفة وطيدة بلغات العرب، ولهجاتهم على تنائي الديار، واختلاف اللهجات ثم جاء خلفاؤه من بعده فاستنوا سنته، وانتهجوا طريقته وساروا على هديه يعون إلى الدين، ويشرحون تعاليم الإسلام وينفذون العهود والوصاية للقواد والولاة والقضاة بمثل ما كان يفعل رسول الله (ﷺ) ولكنهم تقحموا أبواباً جديدة

كانت موصدة أيام رسول الله (ﷺ) فقد حدث خلاف بين المهاجرين والأنصار كاد يتسع خطره لولا حكمة "أبي بكر وعمر" كما ارتد كثير من قبائل العرب أول خلافة "أبي بكر" حيث انفتح باب الفتنة الكبرى على مصراعيه فدخلت الأمة منه إلى فرقة لا جمع لها، وإلى خلاف لم يأت بعده اتفاق، والتاريخ أصدق سجل وخير مُحدث عن ذبح "عثمان" ؓ وما كان بين العلويين والأمويين وبين هؤلاء جميعاً والخوارج الناقمين مما أدى إلى حروب الجمل وصفين وأنهى عهد الخلفاء الراشدين بقتل "علي" - رحمه الله - سنة أربعين، وسيأتي تفصيل الخلافات أيام الأمويين .

فالخطابة في صدر الإسلام كان عليها أن تتناول هذه الأحداث والفن التي اتسع أفقها ، وعم شأنها وشغل الناس بها ، ولولاها كل ذى مكانة مؤيداً أو معارضاً - موالياً أو معادياً - مكثراً القول في قلب الولاة والحكام، وتنقص الخلفاء وإظهار معائبهم ، كالذي حدث في فتنة "عثمان" ؓ أو يجادل خصمة ، ويوهن حجته، ويأخذ عليه نواحي الرأي، ومسالك الكلام كما حدث بين علي - كرم الله وجهه - والخوارج فظهرت قوة الحوار، وشدة الجدل، ونصوع الحجة ولدد الخصومة، لذلك وجدت الخطابة لها في هذا العصر وقوداً هائلاً أشعل جذوتها ، وأذكى نارها، وشدَّ قِيَاضُهَا فأكسبها الرقى والنمو والازدهار، وبقيت للخطابة عاداتها القديمة من اعتجار العمامة، والاشتغال بالرداء، واتخاذ المخصرة والوقوف على نشز من الأرض أو منبر وكان رسول الله (ﷺ) يعتمد على قوس في الحروب، وعلى عصا في السلم قبل أن يتخذ له المنبر، وكانوا يبدءونها بالحمد لله وتوحيده، والثناء عليه وتعظيمه، ثم الصلاة على خاتم أنبيائه وصفوته من خلقه ولذلك لما خلت خطبة "زياد" من هذا البدء سميت بالبتراء .

دراسات في الأدب •————• في عصر صدر الإسلام

وقد جروا فيها على طرفي الإيجاز والإطناب إتباعاً للدواعي فقد خطب رسول الله (ﷺ) من لدن صلاة العصر حتى دنت الشمس للمغيب ، كما في رواية " أبي سعيد الخدري " .

كما ذكر أن " عمر " لما بويع وقف على المنبر فلم يزد على قوله بعد " الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، ثم قال : " أيها الناس ، انه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى أخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوى حتى أخذ الحق منه " ثم نزل .

هذا ، وخملياء صدر الإسلام بعد رسول الله (ﷺ) لا يحصون كثرة وأعظم الخلفاء الراشدين ، كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، غير أنه من المجمع عليه أن أخطب خطبائه غير مدافع ولا منازع بعد رسول الله (ﷺ) هو ابن عمه وزوج ابنته " علي بن أبي طالب " - رحمه الله تعالى - .

نماذج من الخطابة في هذا العصر

ما نزل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَحَ بِمَا نُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]

دعا رسول الله (ﷺ) قومه ، وصعد النبي - ﷺ - على الصفا ، فجعل يُنادي :
(يا بني فهر! يا بني عدي !) ليطولون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم
يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال:
((أرأيتمكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغيّرَ عليكم أكنتم
مصدقين؟)) قالوا : نعم ، ما جرينا عليك إلا صدقاً .
قال : ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) .

فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ قَوْمَكَ الْآفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

جمعهم (ﷺ) فحمد الله ثم أنشئ عليه فقال : " الحمد لله أحمدته
وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " .
ثم قال : " إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ، ما كذبتكم
ولو غررت الناس ، ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم خاصةً
وإلى الناس كافةً ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن
بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً . وإنها للجنة أبداً ، والنار
أبداً . وأنتم لأول من أنذر " .

وخطب رسول الله (ﷺ) حين دخل مكة فبعد أن طاف بالبيت سبعاً
على راحلته وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها * عثمان بن طلحة * وقف على باب
الكعبة وجمع أهل مكة وخطب فيهم فقال:

((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سداية البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخملأ شبيه العمد بالسوط أو العصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأبياء، الناس من آدم وادم من تراب، ثم تلا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]

ثم قال ((يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم اليوم؟)) قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء...))

وخطب يوماً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم فإن العبد بين مخالفتين أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار".

وخطب "أبو بكر الصديق" يوم السقيفة، فحمد الله وأثنى عليه،

ثم قال، أيها الناس! نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادةً في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله (أسلمنا قبلكم، وقدمنا القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ

الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْأَسَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفىء وأنصارنا على العدو، أويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

أما بعد أيها الناس، إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيما بين الصدق من الحديث خير من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك. وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حي غداً ميت. فاعملوا وعُدوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله، وقدّموا لأنفسكم خيراً تجدوه مخضراً، فإنه قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُ كُلُّ نَفْسٍ لِّنَفْسٍ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرَ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْغَافِلِينَ﴾ [آل عمران: ٣٠]

فائقوا الله عباد الله، وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بُدَّ من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله أنه غفور رحيم فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله، ولا خول ولا قوة إلا بالله. إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً. اللهم صلّ على محمد عبّدي ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك، ذكّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمّته، وأورثنا حوضه. اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك.

ومن أبلغ كلامه حين عهد بالخلافة إلى "عمر" ؓ ما روي عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: دخلتُ على أبي بكر الصديق رحمة الله عليه في علته التي مات فيها يوماً، فقلت: أراك بارئاً يا خليفة رسول الله. فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدَّ عليَّ من وجعي، إني ولَّيتُ أموركم خيركم في نفسي، فكلُّكم ورغم أنفه أن يكون له الأمر من دونه، والله لتتخذنَّ نضائد الدِّياج، وستور الحريس، وتُتألَّمُ النوم على الصوف الأذريِّ كما يألَم أحدكم النوم على حَسَك السَّعدان، والذي نفسي بيده لئن يقدِّم أحدكم فتُضرب عنقه في غير حدٍّ خير له من أن يخوض غَمَرات الدُّنيا، يا هادي الطريق، جُرْتُ، إنَّما هو الفجر أو البحر.

فقلت: خَفِّضْ عليك يا خليفة رسول الله، فإنَّ هذا يهبطك إلى ما بك، فوالله ما زلت صالِحاً مُصلحاً لا تأسى على شيء فاتك من الدنيا. ولقد تخلَّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً.

ومن خطب "عثمان" ؓ، وقد نغم الناس عليه :

فقال: "أما بعد فإن لكل شيء آفة وإن لكل نعمة عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيايون ظنَّانَون يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردكم إليهم النازح لا يشربون إلا نخصاً ولا يربون إلا عسكراً لا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب .

لقد أقررتم لاین الخطاب بأكثر مما نغمتم عليَّ ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ووقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزومة فدنتم له على ما أحببت

أو كرهتم ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ
أما والله إنني لأقرب ناصراً وأعز نفراً وأكثر عدداً وأقمن إن قلت هلم أن تجاب
دعوتي من عمر ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن
نايي وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به فكفوا عليكم ألسنتكم
وطعنكم وعيبكم على ولا تكلم فراني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم
لرضيتم منه بدون منطقي هنا، ألا فما تفقدون من حقكم فوالله ما قصرت في بلوغ
ما كان يبلغ من كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفون عليه فضل، فضل من مالي
فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد إذن فلم كنت إماماً .

ومن خطبه في الوعظ :

" إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا
إليها، إن الدنيا تغنى وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنكم الغانية ولا تشغلنكم عن
الباقية.. واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، ولا تصيروا أحزاباً، ثم قرأ
قوله تعالى:

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وخطب "علي بن أبي طالب" لما أريد على البيعة بعد قتل "عثمان" -رحمه
الله- فقال: " دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم
له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الأفاق قد أغمامت، والمحجة قد تنكرت،
واعلموا أنني إن أحببتكم رغبت لكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب،

وإن تركتموني فأننا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً” .

ومن خطبه كرم الله وجهه حين استنفر أهل الكوفة لجرب الجمل، قال :
" فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى التلقين كافةً ، والناس في اختلاف والعرب بَشراً المنازل ، مستضعفون لما بهم ، فرأب الله به الثاني ، ولام به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبيل ، وحقن به الدماء ، وقطع به العداوة المومرة للقلوب ، والضغائن المشحنة للصدور ، ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيه مرضياً عمله ، مغفوراً ذنبه ، كريماً عند الله نَزْته . فبإلها من مصيبة عمت المسلمين وخصت الأقرين ، وولي أبو بكر فسار فينا بسيرة رضا ، رَضِيَ بها المسلمون .
ثم ولي عمر فسار بسيرة أبي بكر رضي الله عنهما . ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتهم منه .

ثم كان من أمره ما كان ، أتيتموه فقتلتموه ، ثم أتيتموني فقلتم : لو بايعتنا ؟ فقلت : لا أفعل ، وقبضت يدي فبسطتموها ، ونازعتم كفي فجذبتموها وقلتم : لا نرضى إلا بك ، ولا نجتمع إلا عليك ، وتراكمتم على تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعضاً ، فبايعتموني ، وبايعني طلحة والزبير ، ثم ما لبثنا أن أستاذناني إلى العمرة .
فسارا إلى البصرة فقاتلا بها المسلمين ، وفعلأ بها الأفاعيل ، وهما يعلمان والله أنني لست بدون من مضى ، ولو أشاء أن أقول لقلت : اللهم إنهما قطعاً قرابتي، ونكتا بيعتي ، وألبا على عدوي . اللهم فلا تحكم لهما ما أبرما . وأرهما المساءة فيما عملا وأَمَلَا .

الكتابة

إن من أقوى وسائل الحضارة والتمدن ، والرقى والتقدم في جميع المجالات وأساس حاجيات الملوك والسلاطين والأمراء هي " الكتابة " . فكلما تعددت مناحي الحضارة ، واتسعت مناهج الفكر كانت الحاجة ماسة وملحة إلى " فن الكتابة " ويعنى بالكتابة هنا هي التي لا تمتاز عن أسلوب المشافهة ، لأنها امتداد للحديث العادي ، وليست فناً ذا ملكة خاصة ، أما الكتابة التي يتأنق فيها كاتبها ، ويحاول تحسينها ، وصيغها بالصيغة الفنية ذات الصناعة اللفظية يكون خاضعاً في الغالب لأصول وتقاليد مرسومة ، هذا اللون من الكتابة لا يوجد إلا على يد الكتّاب في القرنين (الأول والثاني) مثل " عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع " .

ولم يسمح العهد الجاهلي بالكتابة ، حيث كان عصر سذاجة وبداءة بيد أنه لما جاء الإسلام وحث على العلم والتعليم وكان أول آيات القرآن نزولاً " اقرأ باسم ربك الذي خلق " فهباً الإسلام المسلمين للثقافة والتهذيب ، والفتح والجهاد والولاية على الأرض وذلك لنشر الإسلام بين الشعوب والأمم .

هذا الأمر جعل الكتابة أساساً لتلك النهضة العظيمة التي أتاحها الله للمسلمين ، وذلك ما وضع رسول الله (ﷺ) دعامته الأولى منذ بعثة سيدنا محمد (ﷺ) ، فقد أدرج ابن عمه سيدنا " علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - منذ طفولته على تعلم القراءة والكتابة ، وكذلك أخذ أخاه " جعفر بن أبي طالب " وكانت تلك خطته في أسرته وعشيرته وقد آمن سيدنا محمد (ﷺ) على كل من يحسن القراءة والكتابة من أصحابه فجعلهم كتّاب وحيه ، وهذا هو أسمى ما يطمح إليه إنسان يؤمن بالله ورسوله .

وقد راسل محمد (ﷺ) الملوك والأمراء يخبرهم برسائله ، ويدعوهم إلى اعتناق دينه والإيمان بالله - عز وجل - وحده لا شريك له ، واستخدم في تدوين هذه الرسائل عليه السلام - كثرة كاتبة من كتابه الذين تعلموا القراءة والكتابة كما كتبوا له عهد الصلح التي عقدت بينه وبين قريش وغيرهم كثير ممن دخل الإسلام .

وقد عمل رسول الله (ﷺ) على تعميم الكتابة ، ففرض على أسارى غزوة بدر الكبرى ، والذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة أن يفدى نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، فكان ذلك فتحاً مبيناً للعلم ، ولم يلحق النبي (ﷺ) بالرفيق الأعلى حتى أناف الكتاب على " خمسمائة " من الذين يجيدون القراءة والكتابة بين فتي وفتاة ورجل وامرأة وكان كتّابه (ﷺ) على نوعين :

النوع الأول : كُتّاب وحى لرسول الله (ﷺ) .

النوع الثاني : كُتّاب أعمال .

ومن كُتّاب الأعمال كما يرويه لنا " القضاعي " في كتابه " عيون المعارف " " الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت " وحذيفة بن اليمان " وكانوا يكتبون الصدقات والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير " وكانا يكتبان التداين والمعاملات .

وقد سار خلفاء النبي (ﷺ) في نشر الكتابة واستخدام الكُتّاب في رسائلهم إلى القادة والعمال ، وفي وصاياهم إلى قضائهم ، وكذلك في مصالحتهم في أهل البلاد المفتوحة وعامة المسلمين .

وقد بقيت الكتابة من عمل النبي (ﷺ) وأصحابه من بعده ينشئون بمكّتهم فيكتبون بأيديهم أو يُملّون غيرهم إن لم يكونوا كاتبين .

ولهذا لم توجد طائفة خاصة تدعى " طائفة الكتابة " كما صارت إلى الحال

فيما بعد .

مميزات الكتابة

ومن مميزات الكتابة في هذا العصر، وهي طابعها السهل، وبعدها عن التكلف مع ميلها إلى الإيجاز، وقصدها إلى الغرض المطلوب وخلوها من عبارات التفخيم، فما عرفوا ضمير الجمع إلا له فيقولون "أنا وأنت" واحتذاؤها حذوا القرآن الكريم وذلك في الجزالة والقوة وامتداد الجمل، ورسوخها في الفصاحة ولم يكن يميزها عن أسلوب المشافهة إلا ابتداؤها بقولهم:

"من عبد الله" فلان "أمير المؤمنين إلى" فلان بن فلان "أما بعد فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو أو هذا ما عاهد به أمير المؤمنين، أو هذا ما أوصى به أمير المؤمنين، أو هذا ما صالح به أمير المؤمنين، كما كان الوالي أو القائد إذا كتب إلى الخليفة قدم اسم الخليفة فيقول مثلاً،
"من سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين" عمر، وقد يقول: "إلى أمير المؤمنين من فلان".

وكانت الكتابة ترمى إلى الغرض دون إمالة أو تكلف بعيدة عن فضول الكلام حتى لقد كان للكتاب في بعض الأحيان يكتبون سطرًا واحدًا كما كتب "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه - إلى "عمر بن العاص":
"من أمير المؤمنين" عمر بن الخطاب إلى "عمر بن العاص" أما بعد "فما تبالي يا عمرو إذا شبت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فوا غوثاه ثم واغوثاه":

هجاه عمرو، "إلى أمير المؤمنين" عمر بن الخطاب "من" عمرو بن العاص:

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

سلام عليك (أما بعد) فقد أرسلت إليك بغيراً أولها عندك وآخرها عندي والسلام " .

وربما وقف الكتاب عند جملة واحدة ، كما كتب " خالد بن الوليد " إلى " عياض بن غنم " حين استنجد به وهو محاصر بدومة الجندل : " إياك أريد " ولعل هذا أوجز كتاب في الأدب العربي .

هذا ما يتعلق بالكتابة في عهد رسول الله (ﷺ) وخلفائه الراشدين ، ومنه يعلم أن الكتابة كانت كتابة رسائل فحسب ، ومع ذلك لم تصطبغ بصيغة ذات صناعة لأن العهد كان قريباً من البداوة .

أما كتابة الدواوين فكانت تؤدي بلغة أهل مصر ، وهي القادسية في " فارس ، والعراق ، والرومية بالشام ، والقبطية في مصر " إلى أن كان تعريب الدواوين على عهد " عبد الملك بن مروان " ، كما سيجي تفصيل ذلك .

نماذج من كتابة هذا العصر

١- كتب رسول الله (ﷺ) إلى ملك الفرس (كسرى أبرويز) :

" بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى " كسرى " عظيم " فارس " سلام على من اتبع الهدى ، وأمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله - عز وجل - فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن توليت فإن إثم المجوس عليك " .

٢- وكتب إلى ملك الروم :

" بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى " هرقل " عظيم " الروم " سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإنني أدعوك بدعاية الإسلام - أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(١) ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون " .

٣- وكتب إلى " المقوقس " عظيم القبط بـ " مصر " :

" بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى " المقوقس " عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإنني أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون " .

١ - قيل : هم الخدم والحوال لصيرته إياهم عن الدين ، وقيل : هم عبدة النار فجعل عليه إثمهم .

٤- وكتب إلى " النجاشي " ملك الحبشة :

" بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى " النجاشي " ملك الحبشة - إني أحمد إليك^(١) الله الملك القدوس^(٢) السلام ، المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول^(٣) الطيبة الحسنة . حملته من روحه ونفخه كما خلق " آدم " بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعضني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله (ﷺ) وإني أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، وقد بعثت إليكم ابن عمي " جعفرأ " ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى " .

٥- ولما ادعى "مُسَيِّلَمَة" النبوة، وكتب إلى النبي محمد (ﷺ)
" من مسيلمه رسول الله سلام عليك (أما بعد) فإني قد أشركتُ في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقریش نصفها - ولكن قریشاً قوم يعتدون " .
كتب إليه (ﷺ) ،

" بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى " مسيلمه الكذاب " - السلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " .

٦- وعهد " أبو بكر الصديق " - إلى " عمر " بالخلافة عند موته فقال : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به " أبو بكر " خليفة محمد رسوله (ﷺ) عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها

١ - أي أحمد الله معك أو أحمد الله حمداً أشهدك عليه أو أوجهه إليك في مقابلتك .

٢ - تقديس الله : تذكه وهو القدوس .

٣ - العادة المنقطعة للعبادة .

الكافر، ويتقى الفاجر. إنى استعملت عليكم "عمر بن الخطاب" فإن برّ وعدل
فذلك علمى به، ورأى فيه، وإن جازَ ويدلّ فلا علم لى بالغيب والخير أردت، ولكل
امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون".
٧- ومن وصاياهم إلى أولياء عهودهم وصية "أبى بكر الصديق"
لـ "عمر" رضى الله عنهما :-

"إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله، إن الله عملاً بالليل لا يقبله
بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة
فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله
عليهم، وخفّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً إن الله ذكر أهل الجنة
فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف
ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فإذا
ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب
ليكون العبد راغباً راهباً، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقى بيده إلى التهلكة
فإنما حفظت وصيتى هذه فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن
صدقته وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله".

٨- ومن إرشادهم لقضائهم كتاب "عمر" إلى "أبى موسى
الأشعري" وقد ولاه القضاء :

"بسم الله الرحمن الرحيم، من "عبد الله عمر" أمير المؤمنين إلى "أبى
موسى الأشعري" سلام عليك (أما بعد) فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة
متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. أس بين الناس

في وجهك وعدلك ، ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البيئة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربيها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بيئةً أمراً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيئةً وإلا استحللت عليه القضية فإنه أتقى للشك ، وأجلى للعمى والمسلمون عُذول بعضهم على بعض إلى مجلوداً في حد مجر أو مجرياً عليه شهادة زور أو ضغينة ، في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والإيمان إياك والغلق ، والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن الزخر ، فمن صمّت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام .

٩- ومن مصالحتهم لأهل البلاد المفتوحة ما كتبه " عمر " إلى أهل " إيلياء " " بيت المقدس " :-

" بسم الله الرحمن الرحيم " : هذا ما أُعْطِيَ " عمر بن الخطاب " أمير المؤمنين أهل " إيلياء " من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يُنقص منها ولا من

حيّزها ، ولا من صليبيهم ، ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن " إيلياء " معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل " إيلياء " أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل " إيلياء " من الجزية ، ومن أحب من أهل " إيلياء " أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم ، وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم " .

١٠- ومن رسائلهم إلى أمراء الأمصار ما كتبه " عثمان " - رضي

الله عنه - إلى عماله حين ولي الخلافة :-

(أما بعد) فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا دُعاة ولم يتقدم إليهم أم يكونوا حياة وإن صَدُرَ هذه الأمة خلقوا حياة - وليوشكن أنتمكم أن يصيروا حياة ولا يصيروا دابة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بالزمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو تتأبون فاستفتحوا عليهم بالوفاء " .

١١- ومن مناشير إلى عامة المسلمين ما كتبه " عثمان " :

" أما بعد فإنما بلغتم ما بلغت بالافتداء ، والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولاد السبأيا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله (ﷺ) قال : الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا " .

١٢- وكتب " علي " إلى " معاوية " بعد وقعة الجمل :-

" سلام عليك (أما بعد) : فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام لأنه بايعني الذين بايعوا " أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي " ما بايعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإضا الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك رضاء ، وإن خرج عن أمرهم خارج رده إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً ، وإن " طلحة والزبير " بايعاني ثم نقضا بيعتهما وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، أحب الأمور إلى قبلك العاقبة وقد أكثرت في قتلة " عثمان " فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم إلى حيلتك وإياهم على كتاب الله .

وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن والعُمري لئن نظرت بعقلك دون هوائك لتجدني أبرأ قريش من دم " عثمان " وأعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت إليك من قبلك جرير بن عبد الله " وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله " .

١٣- فكان جواب " معاوية " على هذه الرسالة :-

" من " معاوية بن صخر " إلى " علي بن أبي طالب " (أما بعد) : فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برئ من دم " عثمان " كنت " كأي بكر وعمر وعثمان " رضى الله عنهم أجمعين ولكن أغريت " عثمان " المهاجرين ، وخذلك عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى

تدفع إليهم قتلة "عثمان" فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ولعمري ما حجتك على "كحجتك على" ملحة والزبير "لأنهما يابعاك ، ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق لأن أهل العراق أطاعوك ولم يُطعك أهل الشام ، وأما شرفك في الإسلام وقرابتك من رسول الله (ﷺ) وموضعك من قريش فلست أدفعه" .

وقد رد عليه "على بن أبي طالب" كرم الله وجهه ، واستمرت المكاتبات بينهما طويلاً حتى كانت الحرب ، فلنقف عند هذا القدر ، ونكتف بما ذكرناه من نماذج لضيق المقام .

النثر العلمي

أما النثر العلمي الذي يقصد به التهذيب العقلي والتأليف والتصنيف فالمعقول أن العصر الجاهلي والإسلامي لم يظفروا منه بشئ، إذ أن ذلك يستتبع حياة علمية ناضجة، واستقراراً هادئاً، ولم يتوافر شئ من ذلك إلا قليلاً نادراً في بعض مدن الحجاز، ولكن انعدام الكتابة وغلبة العمل الاقتصادي قد حال دون بحث أو تقرير علمي.

ولما ظهر الإسلام شغل العرب الفتوح ونشر الدين أولاً، وبالفن الداخلية ثانياً مدة القرن الأول، وكانت الخطابة والشعر والكتابة تسير ذلك كله، فانقضى ذلك العهد دون أن يدون كتاب، إلا ما كان من أمر القرآن في إثباته على الرِّقاع ونحوها مدة "أبي بكر" وفي المصاحف على عهد "عثمان" وكان اعتماد القوم في دينهم ودينهم على كتاب الله، وسنة رسوله، وحين الاشتباه يكون مرجعهم إلى الخلفاء والفقهاء، والاجتهاد، حتى أقوال النبي (ﷺ) وفتاوى صحابته لم يدونوها "اللهم إلا ما سبق من موقف" عبد الله بن عمرو بن العاص "مخافة أن ينتهي بهم التدوين إلى إهمال الحفظ، والاعتماد على الكتاب المعرض للضياع والتصحيف والتحريف، وفي كل ذلك من الأضرار ما كانوا يخشون، ولولا اشتداد الخلاف بين القراء في الأمصار، ما أقدم "عثمان" رضي الله عنه على نسخ القرآن.

ولما دخل الأجانب في الإسلام ولهم عراقية ورسوخ في العلوم والحضارات أخذ المسلمون في التفكير والإنتاج العلمي والتأليف والتصنيف نشأت الكتابة العلمية منذ أواخر العصر الأموي، وظهرت بشكل واسع ومنظم في العصر

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

العباسي، وجملة القول أن الحياة الإسلامية وجد فيها فنون من النثر الأدبي دون النثر العلمي، تلك النثر الفني الذي علت منزلته، وارتفعت قيمته، لأنه أسلوب الدعوة الدينية وأداة الهداية التشريعية، وسيلة البيان للأصول والأحكام بالفاظ عربية فصيحة، سمحة عذبة لا تكيد الألسنة ولا تنبؤ عن الأفئدة، ولا تقول على الأسماع مجانبية لكل وحشى غريب، أو متنافر ثقیل تائراً بفصاحة القرآن وفصاحة النبي (ﷺ).

خطبة أبي بكر

" إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ، ولا تبلى جزاءها الأعمال ، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم فقد جمع كلمتكم ، أصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد أروى أن استنفرهم إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في تلك الحظ الأوفر ، فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأيي الذي رأيته فليشر على امرؤ بمبلغ رأيه .

ثم إن أبا بكر - رحمه الله عليه ورضوانه - قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ - ثم قال :-

يا أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزكم بالجهاد ، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإنني مؤمر عليكم أمراء وعاقده لهم ألوية ، فأطيعوا ريعكم ، ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعنتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليه . ثم قال :-

" أيها الناس: إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم ، إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له وأضعفكم عندي القوى حتى أخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ."

خطبة له في الأنصار

ووصل إليه مال من البحرين فساوى فيه بين الناس فغضبت الأنصار ، وقالوا له فضلنا ، فقال " أبو بكر " صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا وإن صيرتم كان ذلك لله - عز وجل - فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا فرّقني " أبو بكر " المنير ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ﷺ) ثم قال ،
" يا معشر الأنصار : إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا قلتم : إن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن صال به الأمد . فنحن وإنتم كما قال " طفيل الغنوي " :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقني	بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمننا	تلاقى الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم	ظلال بيوت أدفأت وأظلت

خطبة عمر

فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ﷺ) ثم قال ،

"الحمد لله الذي يخص بالخير ما يشاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قد والله أروق لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت فيما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبت ، أصاب الله بك سبيل الرشاد ، وسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله - عز وجل - ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله .

وخطب أيضاً ، فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي (ﷺ) :-
"أيها الناس، إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وأنتم مؤجلون في دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله (ﷺ) تؤخذون بالوحي ، فمن أسر شيئاً أخذ بسريره ، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته ، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فإن من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريره حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا أن بعض الشُّعْ شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، أيها الناس أطيبوا ميثاكم ، وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القبايط فإنه إن لم يشف فإنه يصف أيها الناس ، إنني لوددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا علي ، وإنني لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وأن يبقى أحد من المسلمين وإن

كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يعمل إليه نفسه ، ولم ينصب إليه بدنه ، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، والقليل في رفق خير من كثير في عنف ، والقتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه وإذا أراد أحدكم بعيداً فليعمد إلى الطويل العظيم فليضره به بعضاً فإن وجده جديد الفؤاد فليشتره " .

وخطب أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

" أيها الناس : من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت " أنبي بن كعب" ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت " زيد بن ثابت " ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت " معاذ بن جبل" ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً ، إني بادئ بأزواج رسول الله (ﷺ) فمعملهن ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي ، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته ، إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي فابتليت بكم وابتليتكم بي ، وإني لن يحضرني من أمورك شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة ، فلتن أحسنوا لأحسن إليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم " .

خطبة علي بن أبي طالب

الحمد لله الذي بعث محمداً منّا نبياً ، وبعثه إلينا رسولاً فنحن بيت النبوة ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، ولنا حق أن نعطه نأخذه وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ، ولو طال السرى ، لو عهد إلينا رسول الله (ﷺ) عهداً لأنفذنا عهده ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة الحق ، وصلة رحم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اسمعوا كلامي ، ووعوا منطقي عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا المجمع تنتضي فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة ، ثم إنشأ يقول ،

فإن تلك جاسم هلكت فإني بما فعلت بنو عيين ضخم
مطيع في الهواجر كل عي بصير بالثوى من كل نجم

خطبة لعلی

وخطب "علی" لما سار "الزبير وطلحة" من مكة ومعهما "عائشة" يريدون
"البصرة" فقال :-

"أيها الناس إن "عائشة" سارت إلى "البصرة"، ومعها "طلحة والزبير"
وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبة، أما "طلحة" فابن عمها، وأما "الزبير"
فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولئن ينالوا ذلك أبداً - ليضربن أحدهما عنق
صاحبه بعد تنازع منهما شديد، والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة
ولا تحل عقد إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة
إلى الله ليقتلن ثلثهم، وليهريقن ثلثهم، وليتولين ثلثهم، وإنها التي تنجها كلاب
الحواب، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان، ورُبَّ عالم قتلته جهله، ومعه علمه
لا ينفعه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية أين
المحتسبون؟ أين المؤمنون؟ مالي ولقريش! أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم
مقتولين، ومالنا إلى عائشة من ذنب إلا أننا أسخطناها في حيزنا، والله لأبقرن
الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضج ضجيجها، ثم نزل.

خطبة علي بن أبي طالب

فلما رجع " القعقاع " من عند أم المؤمنين ، وطلحة والزبير ، جمع الإمام عليّ الناس ، ثم قام على الغرائر ، فحمد الله - عز وجل - وصلى على النبي (ﷺ) وذكر الجاهلية وشقاها ، والإسلام والسعادة ، وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله (ﷺ) ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه ، ثم حدث هذا الحدث ، الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ، ومصيب ما أراد إني راحل غداً فارتحلوا ، ألا ولا يرتحلن غداً أحد أمان علي " عثمان " - رضي الله عنه - بشئ في شئ من أمور الناس ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم .

خطبة الأحنف بن قيس

بين يدي عمر بن الخطاب

قَدِمَ الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -
في أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم
وتكلم الأحنف فقال .

" يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق
وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك
الجبابة ، ومنازل كسرى وقيصرو بنو الأصفر ، فهم من المياه العذبة والجنان
المخصبة في مثل حواء السلى ، وحنقة البعير الغاسقة ، تأتيهم شاربهم غضة قبل
أن تتغير ، وإننا معشر أهل البصرة نزلنا أرضاً سبخة هشاشة ، زعقة نشاشة
طرف في مقلاة ، وطرف في ملح أجاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب
سبخة نشاشة لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتيها منافعها في مثل مرئ
النعام ، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة بمثل
ذلك ترنق ولدها ترنق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، دارنا نعمة ، ووظيفتنا
ضيقة ، وعددنا كثير وأطرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ، ودرهمنا كبير ، وفقيرنا
صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا ، فوسع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا
وظيفة توظف علينا ونعيش بها ، فلا ترفع خبيثتنا^(١) ، وتنعش ركيثتنا^(٢) ، وتجبر
فاقتنا وتزد في عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً ، وتَصْرِ^(٣) درهمنا ، وتكبر فقيدنا
وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء ، هلكننا . "

قال عمر : هذا والله السيد ، هذا والله السيد ، قال الأحنف : فما زلت

أسمعها بعدها .

١ - رفعت من خبيثته : فعلت به فعلا فيه رفعت .

٢ - الركن : قلب أول الثني على آخره . وارتكن : ارتكن ووقع .

٣ - صغرة : صبغته بصغرة ، أي تبدلنا بالدرهم الأبيض ديناراً أصفر ، وتجعل فضتنا ذهباً .

خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

" يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرص قائد الحرمان
فاتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قليلاً ولا قليلاً ، واجعل بينك وبين ربك من
العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود ، واستمache المتاح ، فإن كل امرئ
يجمع في وعائه إلى الأقل ممن عسى أن تقتحم الأعين فلا يوفد إليك ."

خطبة عمرو بن معد كرب الزبيري

ثم قام عمر بن معد يكرب الزبيري فقال :-

" إنما المرء بأصغره : قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب وملاك النجعة
الارتداد ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف
الحيرة فاجتنب طاعتنا بلفظك واكتظم بادرتنا وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا فإننا
أناس لم يوقس صفاتنا قراع مناقير ، من أراد لنا قضمًا ولكن منعنا حمانا من كل
من رآم لنا هضمًا ."

خطبة قيس بن ساعدة الإيادي

خطب خطبة قيس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ . فقال :

"أيها الناس : اسمعوا واعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ
آت ، ليل ناج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال
مراسة وأرض مدحاة ، وأنهار مجرأة . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبيراً
ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ يقسم قُسنٌ
بالله قسماً لا إثم فيه : إن الله ديناً هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه
إنكم لتأتون من الأمر منكرأ . ويروى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول :

في الزاهيين الأوليين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لأمصاير
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلى	ولا من الباقيين غايـر
أيقنت أني لا محـا	لة حيث صار القوم صائر

خطبة قُسن بن ساعدة عند قيصر

وكان قُسن بن ساعدة يقد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قُضى به الحقوق .

الوصايا

الوصية هي : " قول حكيم مجرب للأمور ، قد خبر الدنيا ، وسير أغوارها وذلك ليفيد منها من يجيئ بعده وتكون نبراساً له يضيئ أمامه الطريق اللاحب ليجتاز العقبات ويتفادى الأزمات ، وينجو بنفسه من المهلكات .

وتقول معاجم اللغة : وصى ، أوصى الرجل ووصاه : عهد إليه .

قال رؤبة : " وصّاني العجاج فيما وصّني .

أراد فيما وصّاني ، فحذف اللام للثقافية ، وأوصيت له بشئ وأوصيت إليه إننا جعلته وصيك . وأوصيته ووصيته إيضاءً وتوصيةً بمعنى . وتواصى القوم أى أوصى بعضهم بعضاً .

وفي الحديث : " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان ، والإسم الوصاة والوصاية والوصاية والوصية أيضاً : ما أوصيت به .

والوصى : الذى يوصى والذى يوصى له وهو من الأضداد ، ابن سيده :

الوصى الموصى الموصى ، والأنثى وصى ، وجمعهما جميعاً أوصياء ، ومن

العرب من لا يثنى الوصى ولا يجمعه اللثيث : الوصاة كالوصية وأنشد :

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

أَلَا مَنْ مَبْلَغَ عَنَى يَزِيدَا وصاة من أختى ثقة ودود
يقال ، وصى بين الوصايا والوصية ، ما أوصيت به ، وسميت وصية لاتصالهما
بأمر الميت ، وقيل لعلى ، عليه السلام - وصى لا اتصال نسبه وسببه وسمته ينسب
سيدنا رسول الله (ﷺ) قلت : كرم الله وجهه أمير المؤمنين على وسلم عليه هذه
صفاته عند السلف الصالح رضى الله عنهم - ويقول فيه غيرهم : لولا دعاية فيه
وقول كثير.

تُخَيَّرُ مِنْ لَاقِيَتْ أَنْكَ عَائِشَـةَ بَلْ الْعَائِزُ الْمَحْبُوسُ فِي سَجَنٍ عَارِمٍ
وصى النبي المصطفى وابن عمه وفكك أغلال وقاضى معــــارم
وقوله - عز وجل - : ﴿ يُؤِصِّيكَرُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكَكُمْ ﴾ [النساء: ١١]

معناه يفرض عليكم لأن الوصية من الله إنما هي فرض ، والدليل على ذلك
قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْسُتُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذِكْرٌ وَنَسْتَكُمُ يَوْمَ لَمَلَكُوا تَقُولُونَ ﴾
[الأنعام: ١٥١]

وقوله : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٢]

وقوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣]

وقوله : ﴿ وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَنَسْتَكُمُ يَوْمَ لَمَلَكُوا تَقُولُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

وهذا من الفرض المحكم علينا.

وقوله تعالى : ﴿ أَنْوَاصُوا بِدِيٍّ ﴾ [التأريات: ٥٣]

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَوَاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [المعصر: ٣]

وقوله : ﴿ وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ ﴾ [البلد: ١٧].

دراسات في الأدب • في عصر صدر الإسلام

قال أبو منصور: أى أوصى أولهم آخرهم ، والألف ألف استفهام ومعناه التوبيخ
وتواصوا : أوصى بعضهم بعضاً ، ووصى الرجل وصياً وصله ، ووصى الشئ بغيره وصياً
وصله ، أبو عبيد : وصيت الشئ ووصلته سواء ، قال ذو الرمة ،
وصى الليل بالأيام حتى صلاتنا مقاسمة يشتق أنصافها السفر
يقول : رجح صلاتنا من أربعة إلى اثنين فى أسفارنا الحال السفر .
قال الأصمعى : وصى الشئ يصى إذا اتصل ، ووصاه غيره يصيه: وصله^(١) .

١ - لسان العرب - لابن منظور . المجلد السادس . مادة (وصى) ص ٤٨٥٣ وما بعدها - دار المعارف .

وصية "عمر" لـ "أبي عبيد بن مسعود"

تقدم "عمر" إلى "أبي عبيد بن مسعود" فقال :

" إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جروا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فجعلوه ، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعه كان بمضيعة .

٢- وصيته لـ "سعد بن أبي وقاص"

وصى "سعد بن أبي وقاص" حين أمره على حرب العراق فقال :

" أيا سعد بن أبي وقاص ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله (ﷺ) فإن الله - عز وجل - لا يحو السيئ بالسيئ ولكنه يحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا ملاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، والله ربههم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت النبي (ﷺ) منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر هذه عطى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين .

ووصيته للمجاهدين

كان "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه - يقول عند عقد الأوبة ، " بسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تجنّبوا عند اللقاء ولا تمثّلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور^(١) ، ولا تقتلوا هرباً ، ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارة عليهم^(٢) .

وصية "عمر" - "يعلى بن أمية" في إجلاء أهل نجران

روى الطبري قال :

كان أول بعث بعثه "عمر" بعث أبي عبيد ثم بعث "يعلى بن أمية" إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية رسول الله (ﷺ) في مرضه بذلك ، ولوصية أبي بكر - رحمه الله - بذلك في مرضه - وقال : " إئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجّلهم من أقام منهم على دينه ، وأقرّر المسلم ، وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيّرهم البلدان ، وأعلنهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله ألا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بزمّتهم ، فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار بجيرانهم بالريف .

١ - الغلبة .

٢ - شن الغارة عليهم صيها من كل وجه .

وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته

ما حضرت "أبا طالب" الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال ،

' يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حريكم ألب^(١) ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية - يعنى الكعبة - فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للمعاش وثباتاً للوطاة ، صلوا أرحامكم فإن صلة الرحم منسأة^(٢) في الأجل ، زيادة في العدد اتركوا البغى والعقوق ، ففيهما أهلكت القرون قبلکم ، أجيئوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والمات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فإن فيها محبة في الخاص ، ومكرمة في العام .

وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جائكم بأمر قبيلة الجنان^(٣) وأنكره اللسان مخافة الشتات ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته ، وعظموأ أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، وصارت رؤساء قريش وصناديدها ، وثورها خراباً ، وضعفاؤها أرياباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد

- أى نوره لب : والألب : التدبير على العدو من حيث لا يعلم .

٢ - أى فسحة واتدادا : من نساءه أى أخبره .

٣ - القلب .

محضته^(١) العرب ، وبادها ، وأصغت له بلادها ، وأعطته قيادها ، يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلب أحد سبيله إلا رشيداً ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد ، ولو كان لنفسي مدة وفي أجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز^(٢) ، ولدافعت عنه الدواهي .

وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

أوصى " عمير بن حبيب " بنيه فقال :

" يا بني إياكم ومخالطة السفهاء ، فإن مجالتهم داء ، وإن من يحلم عن السفه يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقرّ يقليل ما يأتي به السفه ، يقر بالكثير ، وإنّا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله - عز وجل - إنه من يوقن بالثواب من الله - عز وجل - لا يجد مسّ الأذى .

وصية " دريد بن الصمة "

قال " دريد بن الصمة " مالك بن عوف النصري ، قائد هوازن يوم حنين :

" يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من أيام ، مالي أسمع رُغَاء البعير ، ونهيق الحمير ، وبكاء الصغير ، وزعاق الشاة ، قال : سئلت مع الناس أبنائهم ونسائهم وأموالهم قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فأنقض به ، ثم قال راعى ضأن والله ، وهل يرد

١ - محاضره الود : وأمحضه : أخلصه .
٢ - الهزاهز والهزهزة تحريك البلايا والحروب الناس .

المنهزم عن شيء؟ إنها إن كانت لك ، لم يثقلك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فحت في أهلك ومالك .

ويحك إنك لم تصنع بتقديم البيضة ، بيضة هوازن إلى نحر الخيل شيئاً ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعلياء قومهم ، ثن الق الصبا على متون الخيل ، فإن كانت لك لجق بك من ورائك ، وإن كانت عليك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك قال : لا والله ما أفعل إنك قد كثرت وتهل عقلك .

قال " دريد " ، هذا يوم لم أشمده ، ولم يفتنى ثم أنشأ يقول ،

يا ليتني فيها جَزَع أُخِبَ فيها وأُضِع
أَقود وطفاء للزمع كأنه شاة صَدع

وصية : قيس بن عاصم المنقري " لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه فقال :

" يا بني خذوا عني ، فلا أحد أصلح لكم مني ، إذا دفنتموني فأنصرفوا إلى رجالكم ، فسودوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلقوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم أرى نلك بهم في أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة الرحم وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكرم ، وجنة للثيم ، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنيابة ، فإنني سمعت رسول الله (ﷺ) ينهى عنها ، وادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم ، ولا يعلم " بكرين وأثل " بمدفني ، فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عاراً ، وخذوا عني ثلاث خصال : إياكم وكل عرق لثيم

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

أن تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم ، يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال ،

أحيا للضعائن آباء لنا سلفوا فلن تبديد وللآباء أبناء

وصية أخرى

أمد "أبا بكر أبا عبيدة" بجيش عليه "عمرو بن العاص" فلما أراد الشخصوص خرج معه "أبو بكر" - رضى الله عنه - يشيعه وقال :

"يا عمرو إنك ذورأى وتجربة بالأمور وتبصرة بالحرب ، وقد خرجت مع أشراف قومك ، ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تثلهم نصيحة ، ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود فى الحرب ، مبارك فى عواقب الأمور ، فقال له عمرو : ما أخلقنى أن أصدق ظنك وأن أقبل رأيك ثم ودعه وانصرف .

وصيته لشرحبيل بن حسنة

وروجه "شرحبيل بن حسنة" وودعه فقال له : يا شرحبيل ، ألم تسمع وصيتى "

ليزید بن ابى سفيان " ؟ قال : بلى .

قال : فإنى أوصيك بخصال أغفلت ذكرهن " ليزيد " أوصيك بالصلاة فى

وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل وبعبادة المرضى ، وبحضور الجنائز وذكر الله كثيراً على كل حال .

وصيته لـ "أبي عبيدة بن الجراح"

وما أراد أن يبعث "أبا عبيدة بن الجراح" دعاء فودعه ثم قال له ،

" اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ، ثم يعمل بما أمر به إنك تخرج من أشرف الناس ، وبيوتات العرب ، وصلحاء المسلمين ، وفرسان الجاهلية كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة أحسن صحبة من صحبك ، وليكن الناس عندك في الحق سواء ، واستعن بالله وكفى بالله معيناً ، وتوكل عليه وكفى بالله وكيلاً ، أخرج من غد إن شاء الله .

وصيته لـ "أبي عبيدة بن الجراح" أيضاً

فلما كان من الغد خرج "أبو بكر" - رضى الله عنه - يمشى في رجال من المسلمين ، حتى أتى أبا عبيدة ، فسار معه حتى بلغ ثنية الوداع ، ثم قال حين أراد أن يفارقه : " يا أبا عبيدة ، أعمل صالحاً ، وعش مجاهداً ، وتوف شهيداً يعطيك الله كتابك بيمينك ، ولا تفر عينك في دنياك وآخرتك فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخبئين الزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، إن الله قد صنع بك خيراً ، وساقه إليك ، إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين ، فقاتل من كفر بالله وأشرك به ، وعبد معه غيره .

وصية "أبي بكر" لـ "هاشم بن عتبة"

ولما سار "هاشم بن عتبة" ودعه "أبو بكر" - رضى الله عنه - وقال له :
" يا هاشم إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره
وكنا ننتفع من الشاب بصيره ، وبأسه ونجدته ، وإن الله - عز وجل - قد جمع لك
تلك الخصال كلها وأنت حديث السن ، مستقيل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر
وصابر واعلم أنك لا تخطو خطوة ، ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا نصب
ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحاً ، إن الله لا يضيع أجر
المحسنين .

فقال هاشم ، إن يرد الله بي خيراً يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله
وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ثم اقتل إن شاء الله .

فقال له عمه "سعد بن أبي وقاص" - رضى الله عنه - : " يا ابن أخي لا
تطلعن طعنة ولا تضرين ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من
الدنيا رشيداً ، وراجع إلى الله قريب ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم
صدق قديمته ، أو عمل صالح أسلفته .

فقال أبى عم : لا تخالن منى غير هذا ، إنى إذا لمن الخاسرين إن جعلت
حلى وأرتحالي وغدوى ورواحى وسيفى وطلعنى برمحي وضرى بسيفى رياء للناس
ثم خرج فقدم على أبى عبيدة فتيأشتر بمقدمة المسلمين .

وصية أبي عبيدة للمسلمين

وقد أصابه طاعون عمواس

وكان طاعون عمّوأس قد عمّ أهل الشام (سنة ١٨ هـ) ومات فيه بشر كثير
ومات فيه أبو عبيدة - رحمه الله - .

ولما طعن " أبو عبيدة " وهو بالأردن ، دعا المسلمين ، فلما دخلوا عليه قال :
" إني أوصيكم بوصية إن قبلكموها لم تزالوا بخير ما بقيتم ، وبعدما تهلكون
أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا وتصدقوا ، وحجوا واعتمرؤا وتواصوا وتحابوا
واصدقوا أمرائكم ولا تغشوههم ، ولا تلهكم الدنيا فإن امرؤ لو غشّ ألف حول ما كان
له يد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذي ترون وإن الله قد كتب الموت على بنى آدم
فهم ميتون وأكرمهم منهم أطوؤهم لربه ، وأعلمهم ليوم مياعده ، ثم قال :
" يا معاذ صلّ بالناس ، فصلّى معاذ بالناس ومات أبو عبيدة - رحمه الله - .

وصية لـ " معاذ بن جبل "

ثم صلى ورجع إلى منزله فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طعن ، فلم يلبث
إلا قليلاً حتى مات يرحمه الله ، وصلى عليه معاذ ثم دفنه فلما رجع معاذ إلى
منزله طعن فاشتد به وجعه ، وجعل أصحابه يختلفون إليه فإذا أتاه أصحابه أقبل
عليهم .

فقال لهم ، اعملوا وأنتم في مهلة وحياة ، وفي بقية من آجالكم من قبل أن
تمنوا العمل فلا تجدوا إليه سبيلاً وأنفقوا مما عندكم لما بعدكم قبل أن تهلكوا وتذغوا
ذلك كله ميراثاً لمن بعدكم واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم وشربتم
وأنفقتم وأعطيتكم فأمضيتكم وما سوى ذلك فللوارثين .

وصية لمعاذ بن جبل أيضاً

وأتاه رجل في مرضه فقال :

" يا معاذ علمني شيئاً ينفعني الله به قبل أن تفارقني ، فلا أراك ولا ترائي ولا أجد منك خلفاً ثم لعلني أن أحتاج إلى سؤال الناس عما ينفعني بعدك فلا أجد فيهم مثلك فقال معاذ : كلا إن صلحاء المسلمين – والحمد لله – كثير ، ولن يضيع الله أهل هذا الدين ، ثم قال له : " خذ عني ما أمرك ، كن من الصائمين بالنهار ومن المصلين في جوف الليل ، ومن المستغفرين بالأسحار ، ومن الذاكرين الله على كل حال كثيراً ، ولا تشرب الخمر ، ولا تزني ، ولا تغش الديك ولا تأكل مال اليتيم ولا تفر من الزحف ، ولا تأكل الربا ، ولا تسدع الصلاة المكتوبة ، ولا تضع الزكاة المفروضة ، وصل رحمك وكن بالمؤمنين رحيماً ، ولا تظلم مسلماً ، وحج واعتمر وجاهد ، ثم أنا لك زعيم بالجنة .

ومات رحمه الله ، وقد استخلف " عمرو بن العاص " فصلى عليه عمرو فلما دفنه قال : " رحمك الله يا معاذ فقد كنت – ما علمناك – من نصحاء المسلمين ومن خيارهم وأعلامهم ، ثم كنت مؤدباً للجاهل ، شديداً على الفاجر ، رحيماً بالمؤمنين – وأيم الله – لا يستخلف من بعدك مثلك .

وصية لـ "سعد بن أبي وقاص"

ولما أراد أن يسرحه دعاه فقال :

إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كربه لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاً ، فعنك الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابتك ، يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين :

في طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه يبغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا يبغض الآخرة وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ، ومنها العلانية فأما العلانية فإن يكون حامده وزائمه في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبه وإذا أبغض عبداً بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس فمن يشرع معك في أمرك .

وصية أخرى لـ "سعد بن أبي وقاص"

وكتب "عمر بن الخطاب" إلى "سعد بن أبي وقاص" - رضى الله عنهما - ومن معه من الأجناد .

"أما بعد ، فإن أمرك ومن معك من الأجناد يتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي ، منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، إلا ننصر عليهم لفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا بأن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا

شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منكم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوك ، أسأل الله تعالى تلك لنا ولكم وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم (والسفر لم ينقص قوتهم) فإنهم سائرون إلى عدو ملقيم ، حامى الأنفس والكراع ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها لأنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قري أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولواهم خيراً ولا تستنصروه على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإنا ومات أرض العدو فأتك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل من الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذب لا ينفعك خيره وإن صدقك في بعضه ، والخاص عين عليك ، وليس عيناً لك وليكن منك عند دثوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم وتنقل الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبرهم سوابق الخير فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاء ولا تخفى بها أحداً يهون فتضيع من رأيك وأمرك ، أكثر مما أحببت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ، ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية فإنما عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك وأجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعجلهم المناجزة ، ما لم يستكبرك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلته ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه به ، ثم أذك أحراسك على عسكريك وتيقظ ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤت بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوك ، والله المستعان .

الدعاء

وكان "أبو بكر" - رحمه الله - يدعو في كل يوم غداة وعشية في دبر كل صلاة الغداة وبعد العصر يقول .

" اللهم إنك خلقتني ولم تك شيئاً ، ثم بعثت إلينا رسولاً ، رحمةً منك لنا وفضلاً منك علينا ، فهديتنا وكنا ضالالاً ، وحببت إلينا الإيمان وكنا كفاراً ، وكثرتنا وكنا قليلاً ، وجمعتنا وكنا أشتاتاً ، وقويتنا وكنا ضعافاً ، ثم فرضت علينا الجهاد وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، اللهم لأصبحنا أن نطلب رضاك ونجاهد أعدائك من عدل بك ، وعبد معك إلهاً غيرك ، تعاليت عما يقولون علواً كبيراً ، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين ، اللهم افتح لهم فتحاً كبيراً ، وانصرهم نصراً عزيزاً ، واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً ، اللهم شجع جنودهم ، وثبت أقدامهم وزلزل بعدوهم وأدخل الرعب قلوبهم ، واستأصل شأقتهم ، واقطع دابرهم ، وأبذ خضرائهم ، وأورثنا أرضهم ، وديارهم وأموالهم ، وكن لنا ولياً ، وبنا جَنِيّاً ، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضائنا وتبعاتنا واجعلنا لأئمتك من الشاكرين ، واغفر لنا والمؤمنين ، والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم .

ما قال " ربيعة بن عامر " عند رستم " قائد جيش الفرس "

وأرسل " رستم " قائد جيش الفرس إلى " سعد بن أبي وقاص " أن ابعت إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا فبعث إليه " ربيعة بن عامر " فلما انتهى إليه قال له الترجمان واسمه " عذود " من أهل الحيرة : ما جاء بكم ؟ قال .

" الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لنُدعُوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه بليها ثوبنا ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضي إلى موعود الله قال : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى .

وصية عليّ له " قيس بن سعد "

ولما قتل عثمان - رضى الله عنه - وولي " علي بن أبي طالب " الأمر دعا قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وولاه مصر عام ٣٦ هـ وقال له :

" سر إلى مصر فقد وليتكها ، وأخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك فإننا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وأرفق بالعامّة والخاصة فإن الرفق يُمن .

وصيته لـ "أسامة بن زيد"

وأوصى أسامة بن زيد وجيشه حين سيره إلى "لُثَي" ^(١) ، فقال :

"يا أيها الناس : قِفُوا أَوْصِيَكُمْ بِعَشْرٍ فاحفظوها عني : لا تَخُونُوا ، ولا تَغْلُوا ولا تَغْدُرُوا ، ولا تَسْخُوا ، ولا تَقْتُلُوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجراً مثمراً ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كُله ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاحفقوهم بالسيف خفياً ، اندفعوا باسم الله "

١ - وصيته لـ "عمرو بن العاص والوليد بن عقبة"

وطيخ "عمرو بن العاص والوليد بن عقبة" مبعثهما على الصدقة ، وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة :

"اتق الله في السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، إنك في سبيل من سبيل الله ، لا يسعك فيه الإدهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم ، وعصاة أمركم فلا تثن ، ولا تفتر "

١ - ابنى : موضع يقرب موته بمشارك الشام قتل فيه والده "زيد بن حارثة" .

٢- وصيته لـ " خالد بن الوليد "

ووصى " أبو بكر " خالد بن الوليد فقال :

" سر على بركة الله ، فإذا سخطت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأيلاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العريب غرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وعى عنك ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه " .

وصية " خالد بن سعيد بن العاص " لـ " أبي بكر "

ولما أراد " خالد بن سعيد بن العاص " أن يغدو سائراً إلى الشام ، لبس سلاحه وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم ، عمرأ والحكم وأبان ، وغلمته ومواليه ، ثم أقبل إلى أبي بكر - رضى الله عنه - بعد صلاة الغداة وصلى معه ، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته ، فجلسوا إليه فحمد الله " خالد " وأثنى عليه وصلى على النبي (ﷺ) ثم قال ،

" يا أبا بكر إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طراً بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة ، وأمات البدعة ، وعدل في السيرة ، الوالى على الرعية ، وكل امرئ من أهل هذا الدين محقوق بالإحسان ، ومعدلة الموالى أعم نفعاً ، فاتق الله يا أبا بكر " فيمن ولاك الله أمره ، وارحم الأرملة واليتيم وأعن الضعيف المظلوم ، ولا يكُ رجل من المسلمين إذا رضيت عنه أثر عندك في الحق منه إذا سخطت عليه ، ولا تغضب ما غضبت على ذلك فإن الغضب يجر الجور ، ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع

فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدواً ، ومن اطلع على ذلك منك عداك ، فإذا عادى الوالى الرعية ، وعادت الرعية الوالى كان ذلك قمناً أن يكون إلى هلاكهم داعياً ، وكن لنا للمحسن ، واشدد على المريب ، ثم قال : هات يدك فإني لا أدرى هل نلتقى فى الدنيا بعد هذا اليوم ؟

فإن قضى الله لنا اللقاء فنسأل الله عفوه وغفرانه ، وإن كانت هى الفرقة التى ليس بعدها اللقاء ، فعرفنا الله وإياه وجه النبى (ﷺ) فى جنات النعيم فأخذ " أبو بكر " - رضى الله عنه - ثم بكى وبكى خالد والمسلمون ، وظنوا أنه يريد الشهادة .

وصية " أبى بكر " لـ " خالد بن سعيد بن العاص "

فلما خرج من المدينة قال له " أبو بكر " - رضى الله عنه - :

" إنك قد أوصيتنى برشدى وقد وعيتى ، وأنا موصيك فاستمع وصيتى وعيها إنك امرئ قد جعل الله لك سابقة فى الإسلام ، وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون إليك ، ومستمعون منك ، وقد خرجت فى هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن يكون خروجك نية لحسية ونية صادقة إن شاء الله ، فثبت العالم ، وعلم الجاهل وعاتب السفه ، المتروك وانصح لعامة المسلمين ، وأخصص الوالى على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق الله والمسلمين عليك ، واعمل لله كأنك تراه ، وأعد نفسك فى الموتى ، وأعلم أن عما قبل ميتون ، ثم موروثون ثم مساءلون ومحاسبون جعلنا وإياك لأنعمه من الشاكرين والنقمة من الخائفين ، ثم أخذ يدعو وودعه " .

وصية أبي بكر لـ " عمرو بن العاص "

ولما أجمع أبي بكر أن يبعث الجيوش إلى الشام كان أول من سار من عماله " عمرو بن العاص " وخرج " أبو بكر " يمشى إلى جنب راحلة " عمرو بن العاص " وهو يوصيه ، ويقول ،

" يا عمرو اتق الله في سر أمرك وعلائحته ، واستحبه فإنه يراك ويرى عملك وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم منك ، ومن كان من أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله ، وكن والداً لمن معك ولا تكشف عن الناس عن أسرارهم ، واكتف بعلائبتهم ، وكن مُجِدّاً في أمرك واصدق اللقاء إذا لاقيت ولا تجبن ، وتقدم في العلوم ، وعاقب عليه ، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعبتك وصية له طويلة " .

وصية " أبي بكر " لـ " عمر " - رضى الله عنهما - عند موته

إننى أستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلى الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ونكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً

راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمُعجز له .

وصية " عمر " لـ " أبي عبيد بن مسعود "

وتقدم عمر إلى أبي عبيد بن مسعود فقال :

" إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جروا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ولا تُفشي لنا سرنا فإن صاحب السر ما ضبطه فتحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعته كان بمضيعة " .

وصيته لـ " سعد بن أبي وقاص "

وصى سعد بن أبي وقاص حين أمره على حرب العراق فقال :

" يا سعد بن وهيب ، لا يفرنك من الله أن قيل خال رسول الله (ﷺ) وصاحب رسول الله ، فإن الله - عز وجل - لا يحو السئ بالسئ ولكنه يحو السئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء الله ربههم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت النبي (ﷺ) منذ بُعِثَ إلى أن فارقنا قالزمه ، فإنه الأمر ، هذه غُمُلتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين " .

وصية "العباس بن عبد المطلب" (المتوفى ٣٢هـ) "لـ ابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس " قال لي أبي :

' يا بني إني أرى أمير المؤمنين - يعنى عمر بن الخطاب - قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، وإنى موصيك بخلال أربع : لا يجرين عليك كذبا ولا تختابن عنده مسلماً ، ولا تفشين له سرأ ، ولا تطسرن عنه نصيحة ، قال : فقلت يا أبي .

كل واحدة منها خير من ألف . فقال : كل واحدة منها خير من عشرة آلاف .

وصية عمر لـ " الخليفة من بعده "

وأوصى عمر الخليفة من بعده فقال :

أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئتهم وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رداء العدو وجباة الفئ ، لا تحمل فيئهم ، إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أهل العرب ، ومادة الإسلام أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين ملوعاً ، أو عن يدهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة أن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وتخبرهم ، ولا تُؤزِر غنيهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامة لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك حتى تقضى من تلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تشدد في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك في أحد رافة حتى تنتهك منه ، مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله ، فما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك

من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة وأنت إلى الآخرة جد قريب ، فإن اقترفت لذنوبك عدلاً وعفة عما بسط الله لك اقترفت به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة ، وقد أوصيتك وحضتكم ونصحتكم ، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة ، واخترت من دلائلك ما كنت دالاً عليه نفسي وولدي ، فإن عملت بالذي وعظتكم وانهيت إلى الذي أمرتكم ، أخذت به نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهكم ولم تنزل معاذم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاصاً ، ورأيك فيه مدخولاً ، لأن الأهواء مشتركة ورأس كل خميلة إبليس ، وهو داع إلى كل هلكة ، وقد أضل القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ، ولبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة عدو الله الداعي إلى معاصيه ، ثم اركب الحق وخُض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجل كبريهم ، وراحم صغيرهم ، ووقر عالمهم ، ولا تُضمر بهم فيدلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفئ فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع تسلمهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فياكل قلوبهم ضعيفهم ، هذه وصيتي إياك وأشهد الله عليك ، واقرأ عليك السلام .

وفي رواية الطبري :

قال ، ' وأوصى الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب فإنها مادة الإسلام أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله (ﷺ) أن يوفى لهم بعدهم ، اللهم هل بلغت ؟ تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة .

وصية شريح بن هانئ لـ " أبي موسى الأشعري "

ولما أراد أبو موسى المسير قام إليه شريح بن هانئ الخارثي فأخذ بين يديه وقال :
 " يا أبا موسى : إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجير صدعه ، ولا تقال فلتته
 ومهما من شيء لك أو عليك ، يثبت حقه ، ويرى صحته وإن كان باطلاً ، وإنه لإبقاء
 أهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم عليّ ، وقد كانت
 منك تثبيتته ، أيام الكوفة والجمال ، فإن تشفعها بمنزلها يكن الظن بك يقيناً
 والرجاء منك يأساً ثم قال .

أبا موسى : رُميت بشر خصم	فلا تضع العراق (فدتك نفسي)
وأعط الحق شامهم وخذه	فإن اليوم في مهل كأمس
وإن غداً يجيء بما عليه	كذلك الدهر من سن ونحس
ولا يخذلك عمرو إن عمراً	عدو الله مطلع كل شمس
له خدغ يحار العقل منها	مومة مزخرفة بليس
لا تجعل معاوية بن حرب	كشيخ في الحوادث غير نكس
هداه الله للإسلام فرداً	سوى عرس النى وأى عرس؟

فقال أبو موسى : " ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً
 أو أجزأ إليهم حقاً . "

وصية الأحنف بن قيس لـ " أبي موسى الأشعري "

ولما حكم أبو موسى الأشعري أنه الأحنف بن قيس فقال له :
 " يا أبا موسى : إن هذا مسير له ما بعده ، من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر ادع
 القوم إلى طاعة عليّ ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق من
 أحبوا ، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا ، وإياك إذا لقيت ابن
 العاص أن تصافحه بنبة ، وأن يقعدك على صدر المجلس فإنها خديعة وأن يضمك

وإياه بيت فيكمن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار قالبدي
مستغلق والمجيب ناطق .^١

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف ، وأشار به ، فكان من الأمر
ما كان فلقبه الأحنف بعد ذلك ، فقال له : " أدخل والله قدميك في خف واحدة " .
وصية معاوية لـ " عمرو بن العاص "

١- وقال معاوية لعمرو :

" إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون عنك
وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل
اليمن ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل
فدعه يقول فإذا هو قال فاصمت ، وأعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل ، إن
خوفك بالعراق فخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً
فخوفه بمعاوية . وإن أتاك بالجميل فأتته بالجميل .

٢- رد عمرو بن العاص عليه :

" يا أمير المؤمنين : أقلل الاهتمام بما قبلي ، وأرج الله تعالى فيما وجهتني له
إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل في حريك ما رجوت ، ولم تأمن
ما خفت ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً
وإن الدين منصور ، أرايت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس
عليه ما أقول ؟ " فقال معاوية : " قل ما تريد وتري " .

وصية معاوية لـ " عمرو بن العاص "

١- وجه معاوية عمرو بن العاص ، وبعثه في ستة آلاف رجل ، وخرج وودعه وقال له عند وداعه إياه :

" أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق ، فإنه يُمن ، وبالمهل والتؤدة ، لأن العجلة من الشيطان ، وبأن تقل ممن أقل ، وأن تعفو عن أدبر ، فإن قيل فيها ونعمت وإن أبي فإن السطورة بعد المعذرة أبلغ في الحجة ، وأحسن في العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آخر الناس عندك وكل الناس فأول حسنا " .

الرثاء

رثاء " معاذ بن جبل " لـ " أبي عبيدة "

" رحمك الله يا أبا عبيدة ، فوالله لأثنين عليك بما علمت ، والله لا أقول باطلاً ، أخاف أن يلحقني من الله مقت كنت والله - ما علمت - من الناكرين الله كثيراً ، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاصلهم الجاهلون قالوا سلاماً ، ومن الذين يبيتون لرهبهم سجداً وقياماً ، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، وكان والله من المختين المتواضعين ، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين ويبغضون الجفاة المتكبرين " .

ولم يكن أحد من الناس كان أشد جزعاً على فقد " أبي عبيدة " وعلى موته ولا أطول حزناً عليه من " معاذ بن جبل " .

المقال

مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

" يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب ، وأهلها الذين تلحقها ونتجها قد ضار
سقنا وضار سناها ، ولنا أعوان وعشيرة ذات عدد ، ورأى مجزئ ، ويأس محمود
وأزمتنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرقت شرقنا ، وإن غربت غربنا
وما أمرتنا به من أمر فعلنا "

فقال علي رضي الله عنه : أكل قومك يرى مثل رأيك ؟ قال : ما رأيت منهم
إلا حسنا ، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة ، فقال له علي رضي
الله عنه خيراً .

مقال هاشم بن عتبة

وقال " زياد بن النضر الحارثي " لـ " عبد الله بن بديل الخزاعي " :

إن يومنا عصيب ، ما يصير عليه إلا كل مشيع القلب ، صادق النية ، رابط
الجأش ، وأيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقى منهم ولا منا إلا الرذال ، فقال عبد الله
بن بديل ، أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما علياً رضي الله عنه ، فقال لهما ،
" ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما ، لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع
إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكل آتية منيته كما كتب الله له
فطوى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته ، فلما سمع " هاشم بن عتبة "
ما قاله أتى علياً رضي الله عنه فقال :

" سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم والذين نذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله ، بغير رضا الله فأحطوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستهوى بهم الشيطان ووعدهم الأباطيل ، ومناهم الأسانى ، حتى أراهم عن الهدى ، وقصد بهم قد الزدى ، وحبب إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ، كرهت لنا في الآخرة ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله (ﷺ) رحماً ، وأفضل الناس سابقة وقدماً ، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى تعلم ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء وكانوا ظالمين ، لأن أيدينا مبسوطة بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحة لك بذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتولى الأمر بذكرك جزلة ، والله ما أحب أن لى ما على الأرض فما أقلت ، ولا ما تحت السماء فما أظلت ، وأنى واليت عدواً لك ، وعاديت ولياً لك " .

فقال على رضى الله عنه : " اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك والموافقة لنيبك "

أهم المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السنة النبوية المطهرة.
- ٣- أثر القرآن في تطور النقد الأدبي إلى آخر القرن الرابع الهجري تأليف / محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٢ م.
- ٤- الأصل والبيان لمعرب القرآن ، تأليف / حمزة فتح الله ، مصر ، طبعة مصر.
- ٥- أوائل السور في القرآن الكريم ، تأليف / على نصوح الطاهر ، عمان ١٩٥٤ م.
- ٦- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي (تعريب محمد عاصم الحنّاء) دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ٧- الإسلام والتكافل المادي في المجتمع ، تأليف / حسن خالد ، بيروت ١٩٥٩ م.
- ٨- الإسلام والديموقراطية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي ، دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ٩- الإسلام والعلاقات الدولية (في السلم والحرب) تأليف / محمود شلتوت القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.
- ١٠- إعجاز القرآن تأليف / أبي بكر محمد بن الطبيب الباقلائي ، تحقيق / أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٥ م.
- ١١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، تأليف / مصطفى صادق الرافعي ط محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٥ م.

- ١٢- اشتراكية الإسلام ، تأليف الدكتور / مصطفى السباعي ، دمشق ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .
- ١٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٣٣ - ١٩٥٠ .
- ١٤- السياسة الإسلامية في عهد النبوة ، تأليف / عيد المتعال الصعدي القاهرة .
- ١٥- القصص الغنى في القرآن ، تأليف / محمد خلف الله ، ط الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري مصر (بولاق) ١٢٨١ هـ .
- ١٧- اللغات في القرآن ، لأبي محمد إسماعيل بن عمرو الحداد (صلاح الدين المنجد) القاهرة (مطبعة الرسالة) ١٩٤٦ م .
- ١٨- المغربيات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، القاهرة ، اليابى الحلبي .
- ١٩- المتوكل في ما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية ... إلخ ، للسيوطي ، دمشق ، مكتبة القدسي والبيدر ١٣٤٨ هـ .
- ٢٠- المعاهدات والتحالفات في عهد الرسول ، تأليف / حسن خطاب الوزير القاهرة ١٩٣٠ م .
- ٢١- النفاق والمنافقون في عهد رسول الله ، تأليف / إبراهيم سالم ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٢٢- النشر في القراءات العشر لشمس الدين محمد بن محمد الجزري ، دمشق مطبعة التوفيق ١٣٤٥ هـ .

دراسات في الأدب ————— في عصر صدر الإسلام

- ٢٣- بين الإسلام والنظم المعاصرة ، تأليف / أبى الأعلى المودودي .
- ٢٤- تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب لأبى حيان الأندلسى ، حمادة مكتبة عنوان النجاح ١٣٤٥ هـ .
- ٢٥- تفصيل آيات القرآن الحكيم ، وضعه بالفرنسية (جول لايوم) ونقله إلى العربية / محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .
- ٢٦- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، أحمد صقر ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨ م .
- ٢٧- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، تأليف / محمد بن إبراهيم بن الوزير ، القاهرة ١٩٣١ م .
- ٢٨- جامع البيان عن تأويل آيات القرآن لمحمد بن جرير الطبري (محمود محمد شاكر) ، القاهرة ، دار المعارف ١٣٧٤ هـ - ١٣٧٨ هـ .
- ٢٩- زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم الجوزية ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، بلا تاريخ .
- ٣٠- عصر النبى وبيئته قبل البعثة ، تأليف / هبة الدين الحسنى الشهرستانى بغداد ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
- ٣١- غريب القرآن للجستانى ، مصطفى عنانى ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ١٩٤٢ .
- ٣٢- فتح الرحمن لطالب آيات القرآن ، تأليف كرديب على زاده غياض الله الحسنى المقدسى ، بيروت ١٣٣٢ هـ .

- ٣٣- قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ، تأليف / محمد جمال الدين سرور ، القاهرة ، الخانجي ١٩٣٠م .
- ٣٤- كشف الغمة في مدح سيد الأمة ، مختصر من سيرة ابن هشام وغيرها ، تأليف / محمود سامي البارودي ، القاهرة ١٣٥٥هـ .
- ٣٥- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى - محمد فؤاد سزكية ، القاهرة الخانجي ١٩٥٤م .
- ٣٦- مشاهد القيامة في القرآن ، تأليف / سيد قطب ، القاهرة ١٩٤٧م .
- ٣٧- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبري (عنى بطبعه / أحمد عارف الزين صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٦م .
- ٣٨- من بلاغة القرآن ، تأليف / أحمد أحمد بدوي ، القاهرة ١٩٥٠م .
- ٣٩- من توجيهات الإسلام لفضيلة الأستاذ شيخ الأزهر / محمود شلتوت القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م .
- ٤٠- نظرية الإسلام الخلقية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي ، دمشق ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .
- ٤١- نجوم الفرقان في أطراف القرآن (ترتيب فرغلي) .